ضياء الجبيلي

لعنة ماركيز

رواية

لعنة ماركيز

ضياء جبيلي

رواية

إلى محمد الحمراني :

صديقي.. ما زال حلمك

يطلق الفراشات...

سيرة رواية

مرت هذه الرواية بثلاث تحولات، بدءاً من الولادة – الكتابة الأولى، في نموذجها المنشور إلكترونيا في موقع القصة العراقية، مروراً بالكتابة الثانية في نموذجها المنشور ورقياً، ضمن إصدارات اتحاد أدباء البصرة 2007 وفوزها بالمرتبة الخامسة – جائزة دبي الثقافية، وصولاً إلى هذه النسخة، وهي المحطة الأخيرة في سيرة رواية خرجت من عمق الهوة المعتمة التي أحدثها ضياع مخطوطة رواية أخرى، لم يبقَ منها سوى خيوط ناقصة، ورؤوس أقلام مبتورة. ومنذ ذلك الحين، صار الضياع ثيمة الرواية المولودة، لكي تؤسس منحىً جديداً ينأى بالنصّ بعيداً عن موضوعة الرواية المفقودة، التي نُفيت في باص – كوستر إلى جهة مجهولة، لتحلَّ مكانها هذه الرواية التي اتخذت من تلك الثيمة – الضياع نقطة محورية تدور حولها الأحداث.

الجزّار

أجلس الآن على كرسيّ معدني بارد، خلف منضدة خشبية من الخشب الماليزي الصقيل، بلونه الجوزي الذي تتخلله خطوط أفتح منه لوناً، مستقيمة ومتعرجة أحياناً، في غرفة تقع ضمن القسم الإداري لإحدى محطات كبس الغاز الجاف في شمال الرميلة – البصرة، حيطانها مكسوة بطلاء تبنيٍّ فاتح، على سطحها الأملس المشبع بالبرودة تلمع أضواء الفلورسنات المثبتة قواعدها في السقوف الثانوية ذات اللون الأبيض المتسخ والملطخ ببصمات واضحة لأصابع الكهربائيين الذين يغيرون الفلورسنات العاطبة بأخرى جديدة.
في هذه الغرفة التي أختبئ فيها، خلف الأمتعة والفرش والبطانيات العائدة لزملائي في العمل، والموضوعة على المنضدة الأخرى الملتصقة بالأولى من جهة اليسار، بينما تحاصرني النافذة عن يميني والحائط أمامي، في حين تتناثر خلفي على الأرض الأحذية الثقيلة والجوارب ذات الرائحة القذرة، تنتشر السيفتيات والنعل وبدلات العمل والمناشف والملابس الداخلية التي تنفث رائحة العرق، والمؤن الجافة في الدواليب الحديدية. فرش ومعجون الأسنان والأحذية وأدوية السعال والقرحة وحبوب الفاليوم والمصابيح المحمولة والأمشاط ومكائن الحلاقة على الرفّ المعدني بجوار الباب المفتوح على باب آخر يفضي إلى قاعة كبيرة للاجتماعات.

أدخن كثيراً، وأرمي أعقاب سجائري " البن " في منفضة أصنعها بنفسي من علب بيبسي " دايت " التي يستهلكها صديقي المصاب بالسكري، بعد أن أملأها بالماء إلى النصف كي لا تحترق الأعقاب كلية وتفوح منها رائحة القطن الكريهة. إذاك تنتشر رائحة التبغ الناقع فتزعج زملائي الذي يقتحمون عزلتي لأخذ منشفة أو فرشاة أسنان، فلا يشعرون بوجودي، كوني أنا المختبئ وراء الفرش والبطانيات المكومة على المنضدة عن شمالي، فأسمع تخريفهم حينما يحدثون أنفسهم عن المنيفست وسيارات الأدوات والأرباح السنوية والاستقطاعات الشهرية، وقد يستغل أحدهم الفرصة فيضرط ليريح نفسه من الغازات المزعجة.

أجلس هناك، في هذا الركن البعيد عن مشاكل الحياة والالتزامات العائلية، أُخطط بهدوء لقتل أحدهم، شخص ما، طالما فكرت في إمكانية أن أبقيه حياً، لكنني وبعد جدال طويل مع نفسي اكتشفت أنه لم يكن عقيماً إلى الدرجة التي قد يتصورها البعض، صرت راغباً في التخلص منه أكثر من أيّ وقتٍ مضى.
لقد اتُهمت من قبل البعض بقتل الكثير من الأشخاص، لذا يدعونني بالجزار، مع أنني أكره هذا اللقب ولم أرتح في يوما للذين ينبزونني به نكاية، ففي كل مرة أخرج فيها ويداي ملطختان بما يتراءى لهم دماً ينعتونني بالقاتل، بالرغم من أن أحداً لم يستطع حتى الآن من أن يثبت عليّ ذلك، كما لم يسبق لي أن دخلت سجناً أو حُكمت بالإعدام، مع ذلك يجزمون بكوني الأكثر

بطشاً بضحاياي. لكنني هذه المرة أشعر بشهية حقيقية تشدّني إلى القتل وإراقة الدماء، وما دمت قاتلاً في نظرهم، وقتلت الكثير من الناس كما يدّعي أغلبهم، فما المانع من ارتكاب جريمة قتلٍ لم أحلم يوماً في ارتكابها، لكنني في النهاية سأنفذها مع سبق الإصرار والترصّد كما يقال دائماً في محاضر التحقيق والقصص البوليسية المشوقة.

وعلى غير عادة القتلة، أحببت أن أرفق شيئاً من سيرة ضحيتي، على أن أحتفظ بالأسباب التي تدفعني لقتله والاستمتاع بتوضيح رغبتي تلك، وشراهتي لأن أرى ذلك الشخص جثة هامدة :

عام 1973 ولد في الكويت وترعرع فيها قبل طردهم منها بعد حرب الخليج الثانية التي قادتها الولايات المتحدة عام 1991 . في العام نفسه قُتل والده في سفوان برصاص الأمريكان، أثناء محاولته التسلل عبر الحدود العراقية الكويتية، ودُفن من قبل البدو الرحل في جبل سنام.

1992 بعد تنقلات عديدة بين مدن الجنوب، استقرّ مع والدته في البصرة، وأكمل في مدارسها تعليمه الثانوي. ثم التحق في العام 1993 بكلية الآداب، قسم اللغة الانكليزية – جامعة البصرة، وتخرج فيها في العام 1996 بتقدير عالٍ جداً، لكنه تردد في إكمال دراسته للماجستير، فتلقفه الجيش لمدة ثلاثة أشهر قضاها في معسكرات تدريب المشاة قبل أن يُسرّح مقابل دفعه البدل النقدي.

لم يبق سوى سلاح الجريمة، وهذا اشتريته أثناء تجوالي في سوق الجمعة من بائع تحفيات وأسلحة أثرية متنوعة : سيوف، خناجر، سكاكين، مطارق حديدية، سواطير قصابين، بنادق ومسدسات. بعض هذه الأسلحة والأدوات يعود إلى حقب تاريخية متفاوتة، ففيها الفرنسي المصنوع أبان الفترة النابليونية، وفيها التركي الذي يعود إلى وقت ازدهار الإمبراطورية العثمانية، كذلك هناك الأسلحة الانكليزية والبرتغالية والإيطالية المصنعة في وقت كانت المستعمرات الغربية تنتشر في المنطقة بشكل واسع، ومن تلك الأشياء ما يمكن وضعه في خانة التحفيات العائدة إلى العصور الإسلامية المختلفة. إلا أن شيئاً من تلك الأدوات لم يكن مثار اهتمام قد يدفعني لاقتنائه سوى سكين قديمة ومُهمَلة، وضعها البائع جانباً على أحد الأرفف الخشبية في دكانه الصغير. وبالرغم من أنها صدئة، لكنها أعجبتني كثيراً، لا أعرف لماذا، ربما لاحتوائها على نقشٍ هو عبارة عن اسم " عباس السبع " أحد الأشقياء المشهورين في بغداد والذي قتله " الجندرمة " أواخر العهد الثماني، وربطوا جثته بذيل حصان مع زميل له وسحبوهما في الطرقات.

هذه السكين، ما زالت في جيبي منذ أن اشتريتها قبل أكثر من أسبوع، وربما حان الوقت لاستعمالها بعد قرن من التنقل بين الأشقياء وتجار التحفيات والسلع العتيقة. لا بدّ أنها مشتاقة الآن لرائحة الدم ولونه القاني، والذي ينتظر أن يُسفك من صدر أحدهم، شخص ما، طالما فكرت في إمكانية أن أبقيه حياً، لكنني وبعد جدال طويل مع نفسي اكتشفت أنه لم يكن عقيماً إلى الدرجة التي قد يتصورها البعض، صرت راغباً في التخلص منه أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

في دائرة البريد

أكثر ما أزعجني في دائرة البريد التي أعمل فيها هو مشهد الكم الهائل من الرسائل والطرود البريدية التي وجدتُ نفسي، بعد أشهرٍ من انتهاء الحرب، مكلفاً بجمعها وفرز الوارد منها، فيما

تحتم عليَّ إلقاء الصادر في المحرقة المخصصة للمهملات. وبما أن دائرة البريد التي أعمل فيها كانت مشمولة بموجة السلب والنهب التي اجتاحت المدينة، فأن اللصوص لم يدخروا جهدهم من أجل سرقة كل صغيرة وكبيرة من ممتلكات الدائرة، بدءاً بأجهزة الحاسوب مروراً بمكيفات الهواء فالمراوح السقفية وشبابيك الألمنيوم والأبواب الخشبية والأثاث المكتبي والزجاج والهواتف وصنابير المياه وسيارات النقل والمواد المخزنية وقطع الغيار ومحتويات المراحيض. حتى كرات الخيوط ومغازل الحياكة والسكاكين وأكياس البطاطا ورؤوس البصل وعلب الماكياج والمرايا والأمشاط وقراصات الشعر ورضاعات الأطفال في الخزانات الصغيرة للموظفات اللاتي تركن تلك ألأشياء وهربن في اللحظة الأولى التي سمعن فيها صافرات الإنذار وهي تطلق نعيبها معلنة بدء الحرب وشنَّ أول غارة جوية على المدينة.
إلا أن شيئاً لم يحدث في ذلك اليوم من آذار 2003 ، إذ تبين أن ذلك الإنذار كان ضمن الإجراءات الاحترازية التي اتخذتها السلطات في المدينة تحسباً لأيّ طارئ، كأن يكون هجوماً تشنه قوات التحالف المرابطة على الحدود مع الكويت.

لقد تعطل كل شيء بسبب الحرب، وأُفرغت الأسواق من البضائع بعدما ادخر السكان ما أمكن ادخاره من الطحين والسكر والوقود، في الوقت الذي ما زالت الطائرات تملأ الأجواء بدويها المرعب، فتبدو البصرة في المساء كمدينة للأشباح، لا يتحرك فيها سوى الجنود برشاشاتهم الكلاشنكوف الروسية، ودوريات الشرطة والحزبيين الملثمين بالغتر الحمر، يجوبون الشوارع الجرداء، أو يحتمون بالحفر والخنادق المحصنة بأكياس الرمل.

في اليوم التالي هُجرت الأسواق تماماً، فيما غادرت بعض العوائل إلى المحافظات القريبة والمناطق الريفية النائية هرباً من القصف الجوي المحتمل على المدينة. وما أن هبط الظلام حتى سُمع دوي الانفجارات على الحدود وفي أنحاء متفرقة من البصرة. ثمة قناة فاجأت الناس بظهورها على شاشة التلفاز، وكانت تقدم النصائح إلى الجيش العراقي بعدم الرد على قوات الائتلاف في حال مبادرتها بالهجوم.
في صباح اليوم الثاني 20 آذار 2003 أعلن الرئيس بوش في خطابه المذاع عن بدأ الحرب رسمياً وبلهجة حماسية توعد خلالها بالنصر. في حين ظهر صدام حسين على غير عادته أثناء الخطابات التي يبثها التلفزيون المحلي أيام الحروب والمعارك الدامية، في غرفة تفتقر إلى بذخ القاعات والمكاتب الرئاسية الفخمة التي اعتاد إرسال خطبه منها. إذ ظهر هادئاً هذه المرة، وربما متوتراً وأقل حماسة، يضع على عينيه نظارات أظهرته على غير الشاكلة التي يبدو عليها دائماً.

استمرت المعارك حتى 6 نيسان من العام نفسه، اليوم الذي دخلت فيه القوات البريطانية إلى البصرة. عندئذ، عمّت الفوضى، وبلغت موجة النهب ذروتها في يوم 9 نيسان الذي أُسقط فيه تمثال صدام في ساحة الفردوس.

لم يبق من دائرة البريد سوى هيكلها الكونكريتي، وكان أشبه بجمجمة عملاقة تعود لأحد الكائنات الأسطورية أو تلك المنقرضة. ثمة أشياء تعرضت للعبث فقط : صناديق البريد التي بدت كأنها قبور مستباحة في مقبرة مهجورة. هناك أيضاً البلاء الذي كان ينتظرني ليلتصق بي ويجعلني أتقيأ مرات عديدة من رائحة العفونة التي أصابت المخللات والتمور والخبز الأسمر والتبغ والتراب الذي يشتاق له المهاجرون. كل هذه الأشياء تعفنت – إلا التراب – في الصناديق الكارتونية المرزومة بأقمشة بيض تشبه الأكفان، والمعدة للشحن وقتذاك. تخلصت من الأغراض الثقيلة أولاً قبل أن يحين دور الرسائل والطرود التي تحتوي على بطاقات التهنئة والمواساة، الصور العائلية، الرسائل الجامعية، البرقيات المستعجلة، المجلات، الكتب، الأطروحات، البحوث، كلها جمعتها تمهيداً لإلقائها في المحرقة. وأثناء انغماري في العمل راودتني فكرة هي أن أفض قسماً من تلك الرسائل والطرود قبل إتلافها، فلعلي أعثر على شيء يعود عليَّ بالفائدة فيكون مقابلاً لما أقوم به من جهد مضنٍ. فرحتُ أفتح الرسالة تلو الأخرى حتى وجدت أن ثمة الكثير من بطاقات التهنئة وصور الزفاف وأعياد الميلاد وصور الخلاعة والرسائل الغرامية والأشعار والقصص والمقالات الصحفية والأدبية ورسائل التعارف، وهذه جمعتها كلاً على حدة لأقرر من منها أودعه المحرقة وما الذي يمكن أن استفيد منه. وكان ثمة مسحوق أبيض معبأ في أكياس صغيرة عرفتُ أن المراد منه افتعال المقالب التي صار الناس مهووسين بترهيب أصدقائهم بها بعد موجة الرسائل التي اجتاحت أوروبا وأميركا، وكانت تحمل مسحوق الجمرة الخبيثة.

شعرتُ بالملل ولم أضع في جيوبي سوى القليل من بطاقات التهنئة التي أعجبتني، في حين أخذت المئات طريقها إلى المحرقة، وبذلك انتهى عملي المتعب هذا ولم يتبق من تلك الأشياء سوى مظروف من الحجم المتوسط وضعته جانباً بعد أن خمنت أن الذي بداخله ربما يكون مجموعة شعرية أو قصصية أو ربما رواية أو دراسة نقدية. بدا لي ذلك من عنوان المرسل إليه وهي مجلة أدبية تصدر في المنفى إضافة إلى كلمة " مطبوعات " التي كُتبت على حافة المظروف. مرت أيام وما يزال المظروف في مكانه على أحد رفوف الرسائل وقد شدَّني الفضول إليه ثانية، فتناولته وأخرجت الأوراق التي بداخله. فوجدت الورقة الأولى منفصلة عن الأوراق الأخرى، وكانت بمثابة رسالة تحتوي على مضمون غريب وملغز نوعاً ما جاء على النحو الآتي:

" عزيزي (A) .....

إليك الرواية، وأنا على ثقة تامة أنك أذكى من أن تنطلي عليك خدعة أإلكترونية صغيرة.

إن الناس في مجتمعاتنا تبهرهم حكايا الجن والشياطين التي تتلبّس أجساد البشر. وفي الغرب ربما لا يصدّقون شيئاً من ذلك، إلا أنهم يصغون إليها ويشاهدونها باهتمام : في السينما وأفلام الكارتون.

الإصغاء: هذه الكلمة، تبدو أكثر أهمّية من أن تصدّق شيئاً يبدو لك كخرافة أو أسطورة. وقد أصغى الناس إلى كافكا وماركيز وساماراغو وخوان رولفو وغيرهم ممن تعاملوا مع المسوخ والكوابيس والخرافات والأشباح والأموات. فما بال هذا العالم لا يصغي إلينا ونحن نروي قصّتنا الحقيقية ؟!

أرجوك: اقرأ بإمعان ولا تنس أن تختار لي أسما مناسباً تضعه تحت العنوان. في الختام، أعتقد أني سأشتهر قريباً من خلال هذه الرواية، وغاية ما يتمناه الروائي هو أن يكون معروفاً.

(shift) + (Alt) = ل – م

صديقك المخلص

فائز

رسالة غريبة حقاً، والأغرب منها هذه المخطوطة التي أرفقت معها. ظننت أنها ربما تكون مكتوبة باللغة الإنكليزية التي أُريد منها التمويه على الرقيب الذي لامحيص له عن فظّ المظروف وفحص ما في داخله. لكنني اكتشفت أن لغتها كانت مشوهة بطريقة جعلتني اشعر بالملل وأنا أتعقب الغموض الذي ملأ صفحاتها. ما جعلني أتخلى عن رغبتي في الإصغاء لكاتبها، إذ بدت مخطوطته أكثر استعصاء مما تصورت، وكنت سأصدقه لولا هذا الغموض الذي وصل إلى درجة استحالة فهمها وهو ما جعلني أتساءل: ترى ما الذي يجعل كاتبنا المجهول فائز معروفا إلى هذه الدرجةً ؟ هل هي مجموعة الأوراق الخرقاء التي عثرتُ عليها في مظروف مرميٍّ مع الرسائل والطرود البريدية المُهمَلة ؟! وهل ثمة من يذكره في الآخر قائلاً أنه روائي فذّ استطاع أن يجبر الناس على الإصغاء إليه ؟ وهو ما أحاول نفيه أو إثباته من خلال محاولاتي لفكِّ الشفرة التي ملأ بها أكثر من عشرين صفحة من القطع الكبير. ويقيناً : أنا لا أعرف بأيّ لغة كتب فائز هذا روايته.

" يا إلهي

كم يبدو الأمر سخيفاً
وصعباً للغاية!! "

اللغة العكسية

الورقة الأولى ظهرت بترتيب كلاسيكي أو كما هو شائع لدينا في أغلفة الكتب الروائية مع بورتريه للروائي الكولومبي ماركيز. وقد بدت الكتابة التي في الوسط كعنوان، نظراً لحجمها

الكبير. أما التي في أعلى الورقة والأخرى في ما يلي الرسم، فإنهما أصغر نسبياً : الأولى ربما تكون اسماً، والثانية ربما تكون كلمة (رواية) أو بالعكس.

thz. Ahlg

Gukm lhv;d.

V,hdm

أما الورقة الثانية فقد احتوت على كتابة ظننت أنها توطئة أو إهداء. وقد حاولت ترجمة الكلمات الانكليزية في الورقة الثالثة وهي بداية المتن، فاكتشفت أن بعضها كان يعني بما يقابلها بالعربية أشياء لا تتطابق أو تشكل معنىً موحداً يمكن أن يفضي إلى نتيجة أو مفهوم محدد. والقسم الآخر من هذه الكلمات صُفّت حروفها بشكل عشوائي، ناهيك عن الرموز والعلامات التي يمكن إيجادها على أزرار الكي بورد :

(1)

pdk fgykh hgofv hij.~Q hglrin
gds lrin " psk u[ld " H, `h; hg`d dsl,ki " hgahfk]v " ,b pjn lrin " hglur]dk " t;g i`I hglrhid jru td hguhwlm Hlh hglrin hg`d Hjp]e uki tdru td Hrwn hg[k,f hguvhrd lrin wydv td Hp] hgH.rm hgqdrm ,s' hgs,r

hg.rhr ydv ls[g td hgfg]dm g`h jvhi yhvrhW fhgldhi hBskm ,hgkthdhj ,vhzpm hgl[hvd hg;vdim ,I, hglahv Ygdi fhghij.h. gds fsff .g.hg qvf hgl]dkm gHk hggi lk~Q ugdkh Y` [ugkh fud]dk uk hg.b.g g;k~Q hgpv,f ju,~Aq]hzlhW uk hgHadhx hglE]lvm ;lh gl dij.~Q fsff rkfgm 'hzam sr'j fhgrvf lk hgl;hk lu Hk hgrkhfg adx lHg,t fhgksfm gkh,dl;k Hk dp]e `g; lh]hl elm ljsu gguvh; ,Yklh hij.~Q hglrin ftug Nihj hgju[f ,j;vhv b hgw]lm hgjd tgrj rg,f hg[hgsdk ugn hgjo,j hgoafdm dkte,k]ohk Hv;dbjil td hgtvhyhj hglq[vm tdg,e hgi,hx hglg,e sgthW
,;hk lk fdkil su]d td hgohlsm ,hgHvfudk lk ulvi H, vflh H;ev lk `g; frgdg dulg plhbW td hgs,r ,.hdv olsdkd hgulv ihvf lk ]hv hgu[.m hgjd r`ti tdih H,b]I hgelhkdm fjpvdq lk kshzil ;lh Hofv I, f`g; Hlh svphk t;hk I, hBov v[bW lskhW dulg shzrhW ,I, ard r]dl 'df hgrgf g;ki ltv' td hgavf ,duj.~ fgw,wdji Hdhl hgafhf ,;hk ikh; HdqhW wfvd ahf dulg ofh.hW td hgtvk hgl[h,v gglrin ,;v~,ld ljs,g qvdv Hf, yhdf v[g ju]n hgsjdk gds gi H,b] ;hk dulg phvshW gdgdhW td Hp] hglbid hg`d jp,g hgn ls[] fu] hgpvf Hlh hGodv ti, uh]g ahf Ys;htd ,I, hg`d [hx fofv k.hv

Hgofv :
HEu]l k.hv…! k.hv sl;m !
Fdklh lhv;d. dkhl ugn tvhai hg,edv ,dqu vHsi ugn ,sh]m khulm lk vda hgkuhl ,td hgwfhp hgfh;v dtdr lk k,li hgihkz ,hguldr dpwd Hpbli hgsud]m drql hgfs;,dj tdw'fy ahvfi hg;e~ fhgpgdf hglog,' lu hg;h;h, rfg Hk d[gs ogt lhz]m hg;jhfm gdsv] gguhgl hgljpqv v,hdji hg[]d]m uk uhivhji hg;edvhj H, vflh davu f;jhfm v,hdm uk hgavr hgH,s' ,jp]d]hW uk [li,vdm hglrhfv hg[lhudm
Gl duvt uh]g hgYs;htd ;dt dkrg hgofv tr] jguel ,juevj ;glhji ,fhk hgYvfh; td kfvji ,hqphW
Rhg .hdv :.. lk hg`d Hu]li ?!
,jshxg su]d : ,ljn pwg `g; ?!
Hlh ;v,ld hgljs,g tr] rhg fp.k : ,glh`h dEu]l ,I, k.hv.. k.hv sl;m ?!

إلى هنا توقفت عن محاولتي البائسة من أجل فكّ وتحرير الرواية من لغتها الملغّزة التي لم تكن في الواقع تلك اللغة الحقيقية التي يمكن ترجمتها. حتى معشر الجن لا أعتقد أن لهم مثل هذه اللغة ولا حتى الشيطان نفسه تكلم بها ولا أظنه قادر على فهمها أو كشف أسرارها! فبعد كل ورقة أتصفّحها تدور دوائر الغموض، تتشعّب، تأخذ حيزاً أوسع يشغله المجهول والسؤال الذي لم يفارق ذهني أبداً : ترى، أيّ لغة لعينة هذه ؟!!

استعنت بأصدقاء من شتى الاهتمامات: اللغات، الرياضيات، الحاسوب، قبل أن ينتهي بي المطاف أو ربما الجنون إلى أماكن العرّافين والسحرة والمشعوذين. وفي المحصلة لم أعثر على

شيءٍ سوى الخيبة والمزيد من الحيرة والغموض الذي لا أحتمله. فقلت في نفسي: ربما لم تكن هذه رواية وأن فائزاً هذا خدع نفسه قبل أن يخدعنا، وأن كل شيءٍ من الذي قاله في الرسالة لم يكن سوى هراء أراد به التستر على حقيقة أنه روائي فاشل. وإلا فما الذي يعنيه بكل هذه الخربشات ؟ وإذا كان هو من كتبها، فمن الذي أملى عليه : أهو جنونه ؟ " نيتشه " مثلاً: كان مجنوناً مثقفاً. لكن أينسلخ جنونه بهذه الطريقة ليملي عليه الكتابة بلغة مجهولة لا أصل لها ولا وجود.

أمضيت أياماً في محاولاتي اليائسة. فتارة أجدني غارقاً بين الأوراق والقواميس من شتى اللغات. وتارة أخرى أرى إنني أصبحت كالأعمى الذي يحرك الملعقة خارج الإناء. الأمر الذي دفعني إلى أن أهجر بحثي المضني لفترة قبل أن أعود إلى نفس النقطة التي تكمن فيها حيرتي.
وذات مساء كنتُ أمام شاشة الكومبيوتر في مقهى الإنترنت، وقد وصل بي اليأس إلى حدٍّ بتُّ فيه عاجزاً تماماً عن إدراك كنه ما عثرت عليه في دائرة البريد التي أعمل فيها، وهي حزمة الأوراق المطبوعة بلغة مجهولة. فتحت بريدي الإلكتروني وشرعت بكتابة رسالة إلى أحد أصدقائي المغتربين، أشكو فيها قلّة حيلتي ومدى عجزي إزاء المخطوطة الغريبة التي عثرت عليها. لقد كتبت بإسهاب وانفعال جعلني لا أنظر إلى شاشة الكومبيوتر. كنت أنقر على أزرار الكي بورد بحقد وبسرعة لم أشهدها من قبل. حتى أنني لم أعر لإغراء علبة السجائر على المنضدة اهتماماً يُذكر، فما زلتُ أنقر وأنقر حتى انتابني الإعياء وشعرت بالألم في أصبع السبابة من يدي اليمنى.
نظرت إلى الشاشة، ولا أدّعي أنني لم أصدّق ما رأيت عليها، إذ لم يكن للجنون الذي ظننت أنه ربما أجهز على فائز أي تأثير فيما تبدى أمامي حينها. وكنت متيقناً أن كل ما كتبته كان حقيقة، وإن تكن مرعبة للوهلة الأولى، لكنها لا تعدو عن كونها فعلاً أنا الذي قمت به، دون أن يكون ثمة تدخّل من الشياطين أو الجنّ.
الشيء المثير في ما كتبته ساعة ذاك هو أن اللغة التي ظهرت على الشاشة كانت تشبه إلى حدٍّ كبير المخطوطة العائدة إلى فائز، بل إنها هي بحذافيرها ! ولعل ثمة من يتساءل : من أين جاءت هذه اللغة المبهمة لتحطّ على شاشة الكومبيوتر؟ هل هي قصة أخرى، أم أن العدوى انتقلت إليَّ أخيراً ؟
كل ما في الأمر هو أنني اكتشفت بعد انتهائي من كتابة الرسالة أني لم أستخدم زرّي الـ (Alt) و(shift) – اللذان أشار لهما فائز في رسالته – في الانتقال بالكتابة من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية، وكم كنت غبياً حين أهملت تلك الإشارة المهمة. لقد كان الأمر مقتصراً على هذا الفعل من خلال الضغط على الأول ثم الثاني أو باستعمال (الماوس) والنقر على اختيار اللغة

العربية في أسفل الشاشة لأتمكن من كتابة رسالتي على نحوٍ لا يقبل الغموض. لكني لم أفعل ذلك، أو نسيت أن أخطو هذه الخطوة التي من شأنها أن تبقى الأمر شاذّاً وغامضاً ويبعث على الملل.

عموماً: لقد نال رأسي كفايته من التصدّع، ولا أريد أن أعود إلى فرضية الجنون مرة أخرى. إلا أن ذلك لم يمنعني من تحرير المخطوطة من لغتها التي أسميتها بـ (اللغة العكسية). وكم كان ذلك شاقاً ومتعباً إلى درجة الإعياء، وكلفني الكثير من وقتي وأقلق نومي وأثّر على صحتي أيضاً. لكنني وعلى الرغم من كل ذلك بدأت رحلتي في النقر على نفس الأحرف والرموز والعلامات التي استخدمها فائز في تنضيد روايته القصيرة بنسختها الـ (العكسية) بعد أن غيرت الكتابة إلى اللغة العربية. ومن حسن الحظ انه لم يضبط الرواية بالشكل، أي أنه لم يستعمل الحركات مثل الفتحة والضمة والسكون والتنوين بأنواعه الثلاثة إلا قليلاً، وإلا لكان الأمر أكثر تعقيداً مما هو عليه.

الرواية في قسمها المشفر لا تحتوي على نقاط أو فارزات، لذا عمدت إلى تخليصها من الشكل الفوضوي الذي انتهت إليه، بعد فكّ الشفرة، كما أضفت لها النقاط والفارزات المطلوبة في آخر الجمل. وقد أعددت ملحقاً بالحروف والحركات العربية، وما يقابلها بالأحرف الانكليزية مع تمرين منفصل يمكن حلّه بسهولة، لمن يريد التعرف على القاتل.

ما أن أكملت ترجمة الرواية حتى رحت أقرأ باهتمام مع أني لستُ بهذه الشراهة التي تجعلني أقضي الليل في قراءة رواية قصيرة لكاتب مغمور. صحيح أنني كاتب مبتدأ، بيد أني في نفس الوقت قارئ كسول لا تستهويني سوى الروايات العظيمة. أقرأها دفعة واحدة. إلا أن هذه الرواية حفَّزت فيَّ الفضول ووجدتني منساقاً لقراءة سطورها ومنسجماً مع أحداثها وإن كانت غامضة نوعاً ما.

عندما انتهيت من قراءتها شعرت أني معلق ثم غارق في قاع من الاحتمالات والاستنتاجات التي لم تجدِ نفعاً، خصوصاً أن الخاتمة لم تكن بمستوى طموح القارئ الذي هو أنا. ليلتها أحسست أن ثمة أحداثاً أخرى لم يرفقها الكاتب ضمن روايته. وعندما قرأتها ثانية في اليوم التالي رأيت أن من العبث أن يبعث كاتب ما روايته للنشر فيما هي مبتورة أصلاً. ولا يمكن أن يكون ذلك تعمّداً منه في إلقاء التركة كاملة على كاهل القارئ. الأحداث تبدو حقيقية والشخوص يمكن استلالهم من واقعنا السريالي. الأمكنة كذلك: " مقهى الترف " سمعتُ به مراراً وهو مبنى قديم أُنشأ في بداية القرن العشرين، يقع في أحدى الدربونات المتفرعة من شارع المطاعم في العشار، وقيل أنه

مسكون بالجنّ، ثم تحول إلى مكتبة كبيرة في منتصف الخمسينات، جُنّ صاحبها في البداية قبل أن توجد جثته معلقة في المروحة السقفية نهاية السبعينات، أُقفل المكان بعدها ولم يُفتح إلا في بداية الحرب العراقية الإيرانية كمخزن للمشروبات الروحية ثم تحول إلى مطبعة، ثم إلى مطعم للمصرين الذين هربوا منه، بعدما أُشيع أن ثمة امرأة جميلة يرونها تقرأ في ساعة متأخرة من الليل، قبل أن يتحول المكان إلى مقهى في بداية التسعينات ويكون مأوى لمجموعة من الأدباء الشباب، أثيرت حولهم الشكوك وكانوا عرضة للاعتقالات إلى أن توارى وجودهم وانقرض ذكرهم تماماً.

مضى يوم قبل اكتشافي أن الإرسالية كانت ستُرسل بعد الحرب، إلا أن ثمة ما جعلها تُرمى مع المُهملات. بدا ذلك واضحاً من التاريخ المعتمد في ختم البريد على المظروف. ثم أن صورة الرئيس المخلوع في الطوابع التي زيّنت المظروف شُطب عليها بالأسود وبخطٍّ عريض مائل. هذا يعني أن الإرسالية كانت ستُرسل بعد الحرب ولو كان ذلك قبل الحرب لعُدَّ ما حدث لصورة الرئيس بزيّه العسكري جناية يُحكم على فاعلها بالإعدام. إلا أن ما يحير في هذا الأمر هو أن الرسالة في داخل المظروف مؤرّخة قبل الحرب، ولو كانت خلاف ذلك لما اضطرّ الكاتب إلى تشفيرها بهذه الطريقة.

سألت أحدى الموظفات المعنيات باستلام الرسائل وتسجيلها وختمها وإيداعها في الصندوق فأكدت لي أن دائرة البريد اضطرت بعد انتهاء الحرب ولعدم توفر طوابع جديدة إلى استعمال الطوابع القديمة مع شطب صورة الرئيس بالقلم الحبر الأسود. وأن بعض الرسائل القديمة التي عطّلت الحرب إرسالها قد أُرسلت مؤخراً. ما أن علمتُ بذلك حتى تبادر إلى ذهني سؤال وجهته إلى ذات الموظفة " لكن لماذا لم ترسل ؟ " فقالت: ربما لم تستوف شروط الإرسال أو القدر الكافي من الطوابع مما أدى إلى إهمالها. وعندما أعطيتها الرواية مع المظروف وزنتها فاتضح أنها تحتاج إلى المزيد من الطوابع. وبما أن الكاتب ترك على المظروف عنوانه الكامل، فقد قررت أن أعيد له الرواية وإسداء النصيحة بإكمالها مع بعض الإيضاحات والملاحظات التي سجلتها أثناء قراءتي المتكررة لها. وكنتُ أعتقد أنه سيرحب بالفكرة ويأخذ نصيحتي على محمل من الجد. إلا أن ما حدث وفوجئتُ به وقتذاك وقف حائلاً دون تحقيق أمنيتي في قراءة رواية كاملة أعتقد أنها كانت مهمة بالنسبة لكاتبها وربما هي الوحيدة التي كتبها في حياته. فعندما زرتُ البيت الذي يقطن فيه مع عائلته في أحد الأحياء الفقيرة أخبرني أخوه الأصغر أنني أول صديق له يزورهم بعد وفاته! شعرتُ أن هناك أشياء يريد هذا الفتى أن يبوح بها. أشياء وربما أسرار تخص أخاه " فائز " وموته الغامض، لذا تكتمتُ على ما جئتُ لأجله ولم أتحدث عن

الرواية أبداً، حتى عندما سألني : " هل أنت من أصدقائه ؟ " اضطررت إلى الكذب قائلاً: " نعم، كنا كقدمين في جورب واحد " فضحك الفتى من تشبيهي الغريب على الرغم من حزنه لفقدان أخيه، ثم قال:

– في مقهى من مقاهي الإنترنت المنتشرة في المدينة وعلى كيبورد الحاسبة رقم (13) وجد أخي فائز منكباً على وجهه وآخر الكلمات على لوحة المحادثة تقول :

Anaahed az : " هالو فائز، هل ما زلت معي ؟
هالو ...!
هالو...! "

BUZZ!!!

ثم قال و الدموع تترقرق في عينيه:

– هذا سريره حيث كان ينام. وتلك كتبه. وهذه أوراقه.. أنظر!

بعد دقائق رأيت خلالها الفتى يبحث عن شيء ما بين الكتب الموضوعة على رفٍّ خشبيٍّ صغيرٍ مسمّر في الحائط، ما أن عثر عليه حتى اتضح لي أنها مجموعة من الأوراق سلمني إياها. وفيما هو يمسح الدموع عن عينيه الصغيرتين قال:

– اقرأ هذا أرجوك..!

فقرأت الورقة الأولى قبل أن أجزم أنها تتمة الرواية، كتبها فائز بعد الحرب بخطٍ حسن وبحرية بدا وضوحها جلياً. لكني رغم ذلك سألته:
– ما هذا؟!

– كما ترى – قال الفتى – إنها آخر قصة كتبها أخي فائز قبيل موته المفاجئ.

وبمرور الوقت وخاصة في الدقائق التي أعقبت انتهائي من قراءة هذه الأوراق وقفتُ على حقيقة أن ما دوّن في الرواية لا يمكن أن تكون أشياء خيالية ابتدعها الكاتب لخلق الإثارة أو اجتذاب القراء. إنما هي أشياء وأحداث واقعية عايشها قبل أن ينقلها إلى الورق وقد بدا من المنطقي جداً أن هذه الأوراق هي الحلقة المفقودة، إلا أن العثور عليها لم يكن في الحقيقة إتماماً للرواية، فبعد أن قرأت سطورها تأكّد لي أنه لا بدّ من وجود بقية باقية، وهي الخاتمة.

نسخت الأوراق وأخذت من الفتى عنوان مقهى الإنترنت الذي كان فائز يتردد عليه، ثم طلبت منه أن يثق بي ويعطيني البريد الالكتروني الخاص بفائز مع الرقم السري، ومن حسن الحظ أنه فعل ذلك بامتنان.
في اليوم الثاني ذهبتُ إلى المقهى وجلست أمام الحاسبة رقم 13 وهي نفس الحاسبة التي استخدمها فائز للمرّة الأخيرة. فتحتُ بريده الالكتروني ورحتُ أبحث في صندوق الرسائل عن شيء ما زلت حتى تلك اللحظة أجهله حتى عثرتُ على رسالة لم تُفتح بعد، وما أن فتحتها حتى علمتُ أنها حوار مطول أجراه فائز مع امرأة تدعي أنها جنّية مثقفة. يبدو أنه نسخه من نافذة الجاتينك قبل أن يتوقف قلبه ثم أودعه في بريده الالكتروني.

حسناً يمكن للرواية أن تبدأ من النهاية، أي من هذا الحوار الذي عثرتُ عليه في بريد فائز الالكتروني. لكني أعتقد أن البداية بهذا الشكل ستفسد المتعة على القارئ.
ثمة أحداث وأمكنة رأيت أنها فائضة عن الحاجة ولا علاقة لها بالسياق الذي قرره الكاتب في الرواية، وهذه حذفتها، مع بعض السطور الأخرى، وأجريت اللازم في ما يخصّ البناء وطريقة الحوار الذي أحسست بركته وعدم انسجامه مع وعي الشخصيات. أما العنوان فأعتقد أن فائز كان موفقاً في اختياره، إذ لم يكن هناك أنسب من " لعنة ماركيز " عنواناً يتلاءم مع مضمون الرواية وأحداثها المتسارعة. وربما سيسأل القراء عن السبب الذي جعل ماركيز أحد ركنيه. إضافة إلى عدة تساؤلات أخرى من ضمنها : ما علاقة ماركيز بالرواية وشخوصها وما يجري فيها ؟ وهذا أتركه لكاتب الرواية ومبدعها الأصلي فائز الذي أسهب في التحدث عن أصدقائه الخمسة في هذه المخطوطة، في حين أهمل الجزء المتعلق بحياته كاتباً وإنساناً، مكتفياً بالقدر الذي أورده عن تلك الرفقة، دون أن يوضح شيئاً عن اتجاهاته الفكرية والاجتماعية ودوره الذي اقتصر على سرد الأحداث فقط، وهو ما تحتاجه الرواية كونها تروي عن شخوص، وفائز بطبيعته يعد واحداً من أولئك الشخوص. لذا ارتأيت أن أضيف شيئاً عن هذه الشخصية، بالاعتماد على معلومات وتحقيقات مقتضبة أجريتها مع أفراد أسرته. فضلاً عن قراءة رسائله ومذكراته المتفرقة في كراريس وأوراق ومفكرات صغيرة.

ولد فائز في البصرة وتحديداً في المعقل عام 1970. أمه امرأة أمية بسيطة ووالده يعمل في مصلحة الموانئ العراقية وينحدر من أصول بلوشستانية هاجرت إلى البصرة في القرن الثامن عشر.
تخرج فائز في معهد الفنون الجميلة قبل أن يتم دراسته في الجامعة وفي نفس الاختصاص وهو الإخراج السينمائي. قضى بعدها أكثر من عام وستة أشهر متنقلاً من ثكنة عسكرية إلى أخرى أثناء أداء خدمته العسكرية حتى تسرّح في العام 1998.

أثناء دراسته في المعهد كتب أول قصة قصيرة بأسلوب إنشائي واضح، تبعها بأخرى استدعي بعد ظهورها في النشرة المدرسية إلى إدارة المعهد، حيث وبّخَ هناك ولأول مرة في حياته، كونها قصة تشكك بعدالة الحرب مع إيران.
بعد تخرجه من الجامعة، وبعد محاولات عديدة قرأ فائز خلالها المئات من القصص والروايات والكتب الفكرية والفلسفية والتاريخية، تمكن من كتابة رواية قصيرة عاب عليها نزار بقوله إنها ركيكة وتحتاج إلى لغة متعالية ونكهة سحرية كما يبدو ذلك من تهميشه بالقلم الأخضر على الصفحة الأخيرة.

في عام 1999 تعين في سلك التدريس، إلا أنه فُصل بعد ثلاثة أشهر بسبب رفضه ملء استمارة الانتماء إلى حزب البعث. انهمك بعدها في الإعداد لرسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة البصرة، تناول فيها تقنيات الإخراج السينمائي الحديثة، فضلاً عن اختياره المخرج الأميركي ستيفن سبيلبيرغ أنموذجاً. لكن ما أن وصل موعد مناقشة الرسالة حتى فوجئ برفضها من قبل اللجنة، كونه لم يختر مخرجاً عراقياً كمحمد شكري جميل أو صاحب حداد، مفضلاً بذلك مخرجاً أميركياً **من** أصول يهودية.
في نفس العام حاول فائز الهرب برسالته من العراق، لكنه ضُبط على الحدود العراقية الإيرانية، وأمضى في السجون ثلاثة أشهر قبل أن يخرج برشوة كبيرة كلّفت والده الموظف المتقاعد أثاث بيته وقلادة ذهبية ذكرى زواج والدته.

بداية عام 2000 أقحم فائز نفسه في ورطة كُسّرت خلالها أصابعه العشرة، بسبب تناوله نظريات محمد باقر الصدر وماركس في دراسة مقارنة تعنى بالفلسفة والاقتصاد. إذاك، احتار قاضي التحقيق إلى أيّ الجهتين ينسبه : إلى اليمين أم إلى اليسار. أُرسل بعدها إلى معتقل الرضوانية

حيث قضى هناك أكثر من خمسة أشهر أُصيب خلالها بالجذام، ثم أُفرج عنه بعد شموله بأحد قرارات العفو التي تطلقها الحكومة بين حين وآخر.

أما تواريخ تعرفه على زملائه الخمسة، فهي كالآتي :

1992 تعرف على مسعود.

1993 تعرف على ماجد.

1995 تعرف على نزار.

1998 تعرف على نائل.

2001 تعرف على إسكندر.

" إننا مثل الزهور،

نولد ونموت وينتهي كل شيء،

فالموت سيأتي ولكن ذلك

لا يهمني. "

إلبرتو مورافيا

*** *** ***

" ليس أتعس من الموت وحيداً "

ماركيز

القسم الأول

(1)

حين بلغنا الخبر، اهتز المقهى.

ليس مقهى " حسن عجمي " أو ذاك الذي يسمونه " الشابندر" ولا حتى مقهى " المعقدين" فكل هذه المقاهي تقع في العاصمة. أما المقهى الذي أتحدث عنه فيقع في أقصى الجنوب العراقي، مقهىً صغير في أحد الأزقة الضيقة وسط السوق.

الزقاق غير مسجل في البلدية، لذا تراه غارقاً بالمياه الآسنة، والنفايات ورائحة المجاري الكريهة. وهو المشار إليه بالاهتزاز، ليس بسبب زلزال ضرب المدينة، لأن الله منَّ علينا إذ جعلنا بعيدين عن الزلازل. لكن الحروب تعوّض دائماً عن الأشياء المدمرة. كما لم يهتزّ بسبب قنبلة طائشة سقطت بالقرب من المكان، مع أن القنابل شيء مألوف بالنسبة لنا، ويمكن أن يحدث ذلك مادام ثمة متسعا للعراك. وإنما اهتز المقهى بفعل آهات التعجب، وتكرار (لا) الصدمة التي فلقت قلوب الجالسين على التخوت الخشبية، ينفثون دخان (أرگيلاتهم) في الفراغات المضجرة، فيلوث الهواء الملوث سلفاً.
وكان من بينهم :سعدي: في الخامسة والأربعين من عمره، أو ربما أكثر من ذلك بقليل، يعمل حمالاً في السوق. و زاير: خمسينيّ العمر، هارب من دار العجزة التي قذفه فيها أولاده الثمانية بتحريض من نسائهم، كما أخبر هو بذلك. أما سرحان : فكان هو الآخر رجلا مسنا، يعمل سائقاً، وهو " شقيّ " قديم طيب القلب، لكنه مفرط في الشرب ويعتزّ كثيراً بلصوصيته أيام الشباب. وكان هناك أيضاً صبري : شاب، يعمل خبازاً في الفرن المجاور للمقهى. وكرّومي: متسول ضرير. أبو غايب : رجل تعدى الستين، ليس له أولاد، كان يعمل حارساً ليلياً في أحد الملاهي، الذي تحول إلى مسجد بعد الحرب. أما الأخير فهو عادل: شاب إسكافي وهو الذي جاء بخبر نزار.

الخبر:

" أُعدم نزار...! نزار سمكة !

بينما ماركيز ينام على فراشه الوثير ويضع رأسه على وسادة ناعمة من ريش النعام، و في الصباح الباكر يفيق من نومه الهانئ والعميق، يحصي أحلامه السعيدة، يقضم البسكويت، فيصطبغ شاربه الكثّ بالحليب المخلوط مع الكاكاو. قبل أن يجلس خلف مائدة الكتابة، ليسرد للعالم المتحضر روايته الجديدة عن عاهراته الكثيرات، أو ربما يشرع بكتابة رواية عن الشرق الأوسط، وتحديداً عن مقابرنا الجماعية.

لم يعرف عادل الاسكافي كيف ينقل الخبر، فقد تلعثم وتعثرت كلماته وبان الإرباك في نبرته واضحاً .

قال زاير: .. من الذي أعدمه ؟!

وتساءل سعدي: ومتى حصل ذلك ؟!

أما كرومي المتسول فقد قال بحزن: ولماذا يُعدم وهو نزار.. نزار سمكة ؟!

هجمت الأسئلة على عادل الاسكافي دفعة واحدة فيما أثقل سواها كاهل فكري المُعدم، إلا أن سؤالاً أخذ ينمو في قعر مخيّلتي، إلى أن بلغ أشدّه، فراح يعوي في أذنيَّ صائحاً: " ألم يكتفوا بقطع أُذنيه، ووشم جبينه ؟ أهكذا يجلب التخلف عن أداء الخدمة العسكرية في الجيش، للمتخلف حبل المشنقة، ليشنطه من رقبته كالدجاجة، فينتهي بذلك تاريخ عيني " كَلكَامش " المحوّلتين اللتين رأى فيهما كل شيء ؟!

لكن....

ما علاقة ماركيز بنزار سمكة؟

ماركيز، واسمه الكامل (الثلاثي) وهو الشائع لدينا: غابريل غارسيا ماركيز، بعضهم يلفظه أو يكتبه على هذه الشاكلة: جبريل كَارثيا ماركيز. المهم، لا اختلاف على اسمه والأصح ما ذُكر أولاً.

إذن، الكل يعرف ماركيز، فالرجل كولومبي وهو روائي من أميركا اللاتينية، وواضع الواقعية السحرية في مسارها الصحيح. لكن، ما من أحد في هذا الكون يعرف نزار سمكة، إلا ثلة من أصدقائه، وأنا واحد منهم كنا جالسين في مشغل مناقشاتنا اليومية، مقهى " الترف" كما يحلو لنا تسميته، فتلفظ نزار بكلمات أشبه بالعتاب :

" لماذا ندع ماركيز يرسمنا بكلماته، ويجني على حساب مقابرنا ملايين الدولارات، وشهرة تُضاف إلى شهرته الفاحشة ؟ "

لكن: هل صحيح ما أوهمنا به نزار الذي حدجني بعينين تكاد الدائرتان السوداوان فيهما أن تتلاصقا، بيد أن أنفه الطويل من الأعلى حال دونهما، وكانت تلك عاهته الوحيدة، إذ ما زال يقرأ ويقرأ، بشراهة قل نظيرها، حتى احولّت عيناه.

كان يعرف أن هناك مقابر، ودائماً ما يردد على مسامعنا قوله التراجيدي، متحسراً " أن الحياة مقبرتنا الجماعية الدائمة..." وكان مسعود يخالفه الرأي، مؤكداً على أن الوطن هو المقبرة الدائمة " الوطن، هذا المجرم الأليف...! " ثم يخوضان في شجار لسانيٍّ لم ينته في يوم من الأيام كما انتهى في آخر مرة، عندما خرج مسعود عن طوره وراح يسب الوطن والحكومة بصوت أقرب إلى الهمس، فقال له نزار متهكماً:

" حسناً، هذا جيد. لكن لماذا لا تخرج إلى الشارع وتقول لهم هذا الكلام ؟ لماذا لا تزعق به، بدلاً من أن تسرّه لنا هكذا وأنت خائف؟ "

" لم يعد الأمر سرّاً " ردّ مسعود " أنا هنا لأموت : خنقاً، حرقاً، شنقاً، في الجبهة، المهم أن هناك موتا يتربص بي. إذن أنا موجود مع أن وجودي هذا لا يعدو عن كونه سلكا مربوطا بالموت وبالقنبلة في جيبي ! هذه القنبلة، تكاد أن تنفجر. من دواعي سرورها أن تفعل ذلك. لكن هذا لن يفضي إلى الزعيق مثل مجنون ملّ جنونه واشتاق إلى الموت. بصراحة : لست مشتاقاً للموت ! كما لستُ معنياً بالعالم بقدر ما أنا معنيّ بهذا الوطن الجاحد " أبونا الذي شرّدنا ! "

بصق أمامه على الأرض. أراد أن يكمل حديثه، إلا أن نزاراً قطع عليه ذلك، لعلمه بعادة مسعود في الاسترسال. وقد اغتاظ من العبارة الشعرية الأخيرة التي سكبها بحقد.وبان ذلك من نبرته وطريقته في حبس أنفاسه قبل الخوض في حديث يبغي منه الدلالة على ضيق النظرة لدى المقابل.
قال: " أنت كفنان، لا تستطيع التجديف في نهر صغير له نهاية. أنت تكرر ولا تنتج. أنت لا تحلم بأن تحصل على جائزة نوبل. كما لا تتمنى أن تحصل على عددٍ لا بأس به من الملايين مقابل رواية تحجب فيها جيفة الحرب. لكنك ستؤمن ببقائك في حدود الوطن البائس وواقعك البحت، ولن تحاول الخروج إلى ما هو أوسع وأرحب. "

قال مسعود : " اللعنة على أفكارك ! لا تقل أنك ستكتب عن مذابح رواندا والبوسنة والصومال !! "

هزّ نزار رأسه نافياً ولوّح بيده إشارة إلى سوء الفهم الذي وقع فيه مسعود.

" ببساطة : أن الذي نحن فيه مسألة عالمية، كونية.. " عقب نزار خالعاً نظارته، ممعناً النظر في وجوهنا : " ولا بدّ لنا كفنانين أن نؤرخ هذه القضية، صحيح أننا لسنا مؤرخين بالمعنى الحرفي للكلمة، لكننا ننظر إلى ماركيز كقائل للحقيقة، والدليل أنه جمع الدكتاتوريين في دكتاتور واحد، والعالم الثالث في بلدة وهمية هي (ماكاندو). ألا ترى أنها يوتوبيا، مكان لا

وجود له. وها هو الآن يكتب عن عالمك المغلق، لكن ليس بعيون محلية، لأن عالمك المغلق هذا، هو أيضاً جزء من العالم الكبير : قضية يا أخي، قضية عالمية.. "

ولم يترك مسعود للصمت فرصة لكي يعمّ للحظات، عندما أردف جازماً:

" سيقال بأنك روائي ماركيزي كما قيل عن بورخس أنه كاتب كافكوي في حين يبقى محمد خضير يُعرف ببورخسيّتِه ! "

فضحك نزار ولمع في عينيه ألق مزيف، ومرة أخرى، هزّ رأسه أسفاً حتى قال:

" أن ما أتحدث لك عنه الآن ليس كما تتصوره أنت : نوعاً من التقليد، أو الاستعارة. كما أن الرواية يا صديقي، ليست حكراً على أحد "

كان نزار يجري وراء شيء لا نعرف ما هو بالضبط. فصرنا لا نميز فيما إذا كان هذا الشيء الذي سحره وهماً أم حلماً. فقد كان يقول " أنه وهمي الخاص، باستطاعة كلّ واحد منا أن يكون له وهمه الخاص.. " ثم يعود فيقول " أنه ببساطة : حلم الرواية الكبير "

" ومتى بدأ ماركيز بالكتابة عنا ؟ "

سألته، لكن في قرارة نفسي، قبل أن أعلن ذلك على نحو اختلف قليلاً عما أسررتُ به نفسي قبل هنيهة :

" عليه أن يبدأ أولاُ، ثم علينا أن نسأله أو حتى نطلب منه أن يكفّ عن التطفل على معاناتنا...! "

فقال فيما الاستياء على وجهه الأسمر ظهرت ملامحه بوضوح :

" سيبدأ... حتماً سيبدأ ! "

" والمطلوب ؟ "

سألته فأجاب على الفور وكان ينظر إليّ كمن يمعن في الشيء تأملاً، ومزيج من الألم والزهو الفجائعي الحزين يملآن نبرته :

" أن نسبقه طبعاً ! قبل أن يسرق معاناتنا التي نحن أبناءها أحقُّ منه بتسطيرها.."

هكذا كان نزار، قائد السرب بامتياز مع أنه ليس أكبرنا عمراً، لكنه أكثرنا ثقافة وذو نظرة ثاقبة، ملم بكل شاردة وواردة في عالم الثقافة والأدب، فكان بمثابة العراب بالنسبة لنا. وبالرغم من ولعه بماركيز لكنه كان يخشى أن يستغل المأساة العراقية ويخرجها في رواية. إلا أن ذلك لم يحدّ من إقباله الجنونيَ على قراءة أعماله، فوصل إلى أقصى درجات الإدمان عندما قرأ روايته الشهيرة " مئة عام من العزلة " اثنتين وأربعين مرة. أن لنزار لساناً لا يكل وهو يتحدث يومياً عن شخص ماركيز وعوالمه السحرية. مما أثر في كتاباته وجعل الكثيرين من النقاد والكتاب يضحكون ويعيبون عليها. إلا أنه لم يكن يأبه كثيراً. لكنه كان يبكي، نعم، يبكي بصمت فقط، كلما قرأ مقالاتهم التي يدبجونها طعناً ليس بما يكتبه فحسب، بل بكل ما يظهر لنا في نشرة تنتمي إلى ما سمّي وقتها بأدب الاستنساخ، دأبنا على إصدارها مرة واحدة مطلع كل شهر. إلى أن كيد بنا للمرة الأولى، فاعتُقلنا على إثرها وتوجسنا من عواقب الأمر الخطير خيفة، إذ تصورنا أنهم ربما سيقتلعون أظافرنا لولا نزار الذي أنقذنا.

سألنا المحقق:
" من أنتم حتى تتجرؤون على كتابة مثل هذه الترهات ؟ "

" نحن... ؟ " أجابه نزار في الحال وكانت عيناه ترنوان إلى الأعلى، بعد أن تحطّمت نظارته تحت حذاء السلطة : " نحن أبناء ماركيز ! "
فأطلق سراحنا من دون أن يسألنا من يكون ماركيز هذا وما علاقته بالموقف الذي اعتُقلنا بسببه.

منذ ذلك اليوم الذي أفاق فيه على وهمٍ مفاده أن ثمة من صار في نيته كتابة رواية عن مآسينا وحروبنا المجانية ونحن منغمسون في الكتابة من أجل وضع رواية جماعية نسبق فيها مشروع ماركيز، على أن يكون عنوانها " مائة عام من الفوضى ". وكان على كل واحد منا نحن الستة، أن يكتب فصلاً كاملاً بالطريقة التي يراها مناسبة، على أن يبدأ نزار بذلك، ثم "إسكندر " بعد أن يقرأ الفصل الأول الذي كتبه نزار، فيما يشرع التالي وهو " مسعود " بكتابة فصله على

ضوء قراءته للفصل الثاني، كذلك " ماجد " الذي تحتم عليه أن يطلع على الفصل الثالث قبل أن يبدأ بالكتابة، وصولاً إليَّ، ثم إلى " نائل " الذي سيحين دوره في الكتابة عما قريب، عندما سأنتهي من كتابة الفصل الخامس. وكان على كلّ من ينتهي من الكتابة أن يعيد المخطوطة التي كتب على ضوئها فصله إلى صاحبها، فيما تحتم أن يحتفظ بفصله الذي كتبه مخافة الوقوع في المشاكل مع السلطة. لكن الغريب في الأمر أن ماجداً عندما سلّمني مخطوطته أوصاني أن أحرقها في حال انتهائي من الكتابة.

كان لنزار وأحلامه المخيفة الدور المؤثر في ازدياد قناعتي بتأليف هذه الرواية، خصوصاً في اليوم الذي كفر فيه بماركيز، مع أنه كان يحبه كما يحبّ المرء فتاته. يتماهى مع شخصه وأبطال رواياته. يبحث عن كل ما يصدر له أو يُكتب عنه في الصحف والمجلات، يبجل من يعتبره الكاتب الأوحد الذي استطاع أن يسحر العالم ويكتشف ما لا يمكن اكتشافه بعد مئات السنين فيما لو كان أحد غيره هو المستكشف.
نظر إلى صورته المعلقة على أحد الجدران الطينية لغرفته المتهالكة وقال :

" ترى، ما الذي يميز ماركيز عني **؟!** "
ثم التفت إلينا مبتسماً : " طبعاً لا شيء **!** "
فانفجر ماجد مصعوقاً، شاتماً نزار نصف شتيمة :
" ابن الكلـ ..... "
وغضب منه حتى كاد أن يحطم أضراسه. إلا أن نزاراً بدا واثقاً مما قال، وبان ذلك في عينيه المتضاجعتين كما يصفهما نائل، رغم القسوة التي حملتها ردة الفعل تلك.
وسرعان ما عاد ماجد يقسو عليه أكثر فأكثر، قسوة من تطوّع للدفاع عن دين أو مذهب، مع أنه لم يؤمن في حياته قطّ.

قال " كفاك حمقاً يا عراب. بالنسبة لي أنظر إلى إلحادك هذا على أنه هلوسة بالمجان أو نوع من أنواع العهر الفكري الذي يمارسه المهووسون بالعلم والأدب **!** "
" أنا لا أهلوس.. " أردف نزار بكلمات متقطعة : " يمكنك أن تنظر إلى ما قلته على أنه نوع من الأحلام "
فقال نائل " أعتقد أن الأحلام التي نراها ليس إلا هلوسة تحشوها الشياطين في أذهاننا كلما متنا نصف ميتة "

" بل هي الحقيقة ! " أكد نزار : " ثقوا أن ليس ثمة فرق بيني وبين هذا " وأشار بسبابته إلى صورة ماركيز وتابع قوله بصوت تقطر منه الثقة : " لا فرق أبداً سوى أنه يسكن في برج عاجيٍّ و أنا أسكن في بالوعة ! "

أما أنا فلا يسعني إلا أن أنظر إلى نزار نظرة توحي بمشروعية تفكيره، لدرجة وصلت إلى أنني صدقته حين قال :

" وسأحصل على جائزة نوبل! "

" ومتى يكون ذلك ؟ " قال نائل، وانبرى مسعود من مكانه ضاحكاً :

" بالمشمش !! "

فيما عفط ماجد وأضحك الجميع. حتى نزار.

لقد أردت تجميع تلك الأفكار والطروحات والأحلام والأوهام وربما السخافات أيضاً وتدوينها في كتاب سأسميه " نزاركيز " وذلك عندما يشتهر نزار وتكون المناسبة حصوله على جائزة نوبل. وما يهم في الحكاية الآن هو أن أروي حادثة وقعت بين إسكندر وماجد بعد خلاف حاد على اختيار عنوان مناسب لروايتنا الجماعية بدلاً من " مائة عام من الفوضى " الذي اقترحه نزار بحكم عشقه لماركيز، إذ سرعان ما تحول هذا الخلاف إلى اشتباك بالأيدي في يوم من أيام تموز، كنا نجلس كالعادة في مقهى الترف، وفي نيّتنا القيام بتوزيع النشرة الشهرية على رواد المقاهي الأدبية.

(2)

دقائق وأقبل إسكندر.

" اكتملت المسبحة "

صاح نائل فرحاً ووضع يده في المكان الفارغ إلى جانبه، غامزاً بطرفه لإسكندر الذي تجاهل إلحاحه، فألهاه ذلك عن إلقاء التحية. بيد أنه فعل ذلك بعد دقيقة ، ونادى بأسمائنا فرداً فرداً إلا ماجد، مع أنه جلس على نفس التخت الذي يجلس عليه. وكانت تلك تحية المساء، ألقاها ببرود. إنما قوبلت بالردّ الجميل حتى من قبل ماجد نفسه.

في ذلك اليوم، وعلى غير عادته احتضن إسكندر رأسه وراح يعطس في منديل قطنيٍّ أبيض ونظيف كان يضعه على أنفه المحمر كل حين. لم تمرق سوى لحظات، وإذا بماجد يبادره بالسؤال :

" كيف حالك إسكندر، ماذا بك... هل أنت مريض ؟ "

لكن إسكندر بقي صامتاً، مزيحاً اليد التي مسّت رقبته من الخلف وراح يعطس.

" آه... سحقاً.. هل هي أنفلونزا ؟ " ردد ماجد قريباً من أذنه " اللعنة... كم هي مزعجة في الصيف ! "

ثم وضع يده ثانية، لكن هذه المرة على كتفه و أكمل كمن يواسي طفلاً في الفراش :

" أنها مؤذية... في الصيف ؟!! مؤذية جداً.. "

ثم ربت على كتفه وقال في ما يشبه النصيحة :

" لم لا تذهب إلى الطبيب ؟ "

مضت الدقائق، وإسكندر لم يبرح قط غرابة أطواره التي بدت عليه منذ أيام. خصوصاً طريقة تعامله مع ماجد مؤخراً مع أنه كان الأقرب من بيننا إلى نفسه، وأوّل من تعرف إليه بعد عودة عائلته من أميركا عقب انهيار برجي التجارة العالمية في نيويورك.

لقد عاش اسكندر شطراً من حياته في أميركا، وكان والده بعثياً لا تفارق البذلة الزيتونية بدنه، يعمل مدرساً للشريعة في معهد الدراسات الإسلامية في البصرة، إلا أن دروسه إذاك كانت حزبية قومية تسطر أمجاد الثورة وجهادها ضد الفرس والامبريالية أكثر منها تربوية تعنى بالدراسات الدينية. إلا أنه طُرد من الحزب بعد اتهامه باللواط بأحد الطلاب في مراحيض المعهد. دون أن يؤثر ذلك على عمله كأستاذ، خصوصاً بعد صيامه عامين كاملين ثم إضرابه عن الطعام وإشرافه على الموت نتيجة شعوره بالذنب ورغبته بالتوبة.

بعد حرب الخليج الثانية انتقل للعيش في قضاء الزبير، حيث تعرف هناك على نفرٍ من التبعية السلفية. وفجأة صار يلبس الدشاديش القصيرة ويضع على رأسه غترة حمراء دون عقال. وهو المشهد الذي ارتاب منه الطلاب في المعهد، فراح بعضهم ينبزه بالوهابي. فيما بعد صار يتنقل بين البصرة ومدن سعودية كمكة والرياض وجدة، متأثراً بالأفكار التيمية والوهابية، ومنخرطاً في الوقت نفسه في نشاطات جمعية سلفية جهادية تعمل بالسر تحت غطاء العمل الخيري تمتد فروعها إلى أميركا وأوربا. قبل أن يعود إلى الاستقرار في البصرة مجدداً، مسخراً نفسه للعبادة والعلوم الدينية في أحد المساجد، وعيناً للجمعية في البصرة. ثم ما لبث أن هاجر إلى أميركا عام 1995 بعد تعيينه مرشداً تربوياً في مسجد كان في الأصل حانة مقفلة اشترتها الجمعية فحولتها إلى مصلى ومقراً سرياً لها.

في أميركا، وتحديداً في نيويورك أكمل اسكندر تعليمه الجامعي، وفي نفس الوقت كان يتلقى فروضه الدينية اليومية بعد صلاة العشاء، فيتحين الفرص للاختلاء بنفسه في زاوية أو مكان ما ليقرأ فوكنر وهمنغواي وبول أوستر وتوني موريسون حتى ضُبط من قبل الأب الذي أخذ يبصق عليه ويضربه، شاتماً أميركا وعالمها الرقمي، إذ كل شيء فيها بالنسبة له عدا لحيته الصفراء رجس من عمل الشيطان : كرة القدم، الهامبركر، السراويل، الانترنت، الدردشة مع الصليبيين، والأرداف المكتنزة. وبالتالي تحتم عليه أن يرى أحبائه وأصدقائه يُرمون في المحرقة التي خصصها الأب لروايات الكفار كما يدعوها، والتي كان يخبئها اسكندر في المنزل.

كانت نيويورك في نظر اسكندر توليفة خرافية تحتوي على جميع المتناقضات في العالم، لوحة متنوعة فيها من الألوان والأجناس والأعراق ما يجعلها ساحرة ومؤثرة على الدوام، وليس كما اشتهرت في السينما كمدينة للجرائم والمافيات المنظمة، حيث السكان بأعراقهم المختلفة، سياح، رجال أعمال، ممثلين، عمال، موسيقيين، شعراء، روائيين، قساوسة وقوادين، عاهرات ومتسولين، عارضات أزياء وصحفيين ومخرجين. ناطحات سحاب، حدائق، كنائس، مساجد، معابد، بارات، مراقص، بورصات، مكتبات، دور عرض الأزياء، متاحف ضخمة، مراكز تسوق، مسارح عريقة، صالات عرض سينمائي، مسرحي، إباحي. مطاعم، مقاهي إلخ... من مظاهر الحياة الأمريكية في بروكلين وكوينز وبروتكس وستاتن وغيرها من مناطق نيويورك.

أما " سفانة " شقيقته فلم ترى من أميركا شيء عدا صابون اللوكس وشامبو الهيد آند شولدرز وشرائح البطاطا والمكسرات المعلبة والبيبسي والميرندا وجل الشعر وفوط الألويز الناعمة، إذ ظلت محبوسة في المنزل طوال وجودهم في نيويورك، لا ترى أحداً البتة. ولما رأى والدها الفوط الملطخة بالدم والمصرورة في أكياس القمامة عند الباب جنَّ جنونه، فسجن ابنته في غرفتها حتى انتهاء طمثها، فلا يأكل أو ينام معها أحد حتى تطهر من نجاستها.
فضلاً عن ذلك كانت سفانة تموت بين الحين والآخر، أو كلما تقدم أحد ما لخطبتها، ذلك أن أباها يطرد الخاطبين دائماً، مدعياً أن مثل هذه الأمور تُعدّ نوعاً من القيادة، حتى وإن حدث ذلك بين زوجين من الحيوانات كالطيور والقطط والذباب، فإنه يعمد إلى معاقبة أفراد أسرته وأحياناً يجلدهم ما دام أن ذلك يجري في منزله دون رقيب. وبينما كان الأب يتصرف على هذا النحو المتطرف كانت سفانة تستمتع سرّاً برؤيتها عصفورين يتزاوجان على سلك كهربائي أو هرٍّ يضاجع قطته على أحد الأسيجة. وقد تستمني أثناء النوم عندما يترسخ في ذهنها ذلك المشهد فتجده أمامها في الأحلام التي لا تخرج منها إلا وهي مبتلة، مع شعورها الطفيف بالانتشاء والخوف في آنٍ معاً.

ودائماً ما يهرب اسكندر من واقعه المنزلي المغلق، والمجرد من مظاهر التسلية وتزجية الوقت كالتلفاز والدي في دي والإنترنت، إلى شوارع نيويورك المكتظة بالحركة، حيث المباني الشاهقة والحدائق الغنّاء ومراكز التسوق الضخمة. محاولاته الخجولة لاختلاس النظر إلى النهود الكبيرة والمؤخرات السمراء والبيضاء الممتلئة على أغلفة البلاي بوي وعروض الأكس أل الجنسية والفتيات العاريات اللاتي يظهرن أثناء الاستحمام، تغطي أجسادهن رغوة الصابون في إعلانات الشامبو على شاشة التلفاز، داخل أحد المقاهي في شارع ماديسون المزدحم، أو في غرينتش، سوهو، هارلم، بروكلين. يُصاب بالدوار وهو ينظر بإعجاب إلى الأشكال الأسطورية المبهرة لناطحات السحاب والمباني الضخمة : والد دوف – أستوريا، أمبير ستايت، كرايسلر بيلدينغ وغيرها، قبل أن يرتاد حديقة سنترال بارك في مانهاتن حيث تنتصب هناك المسلة الجرانيتية التي جُلبت من مصر عام 1880 والعائدة إلى تحتمس الثالث، أو يقضي وقته بالمطالعة في مكتبة نيويورك العامة، أو يتأمل مشهد الغروب الآسر من على الجسر الرابط بين مانهاتن وبروكلين. فضلاً عن تسكعه في الحي الصيني والإيطالي، وارتقاءه تمثال الحرية حيث يُفاجئ هناك بطيور النورس وهي تخطف من أمامه بسرعة قبل أن يكتشف أنها سرقت ساندويتش الهمبارغر الذي يشتريه من أحد المطاعم في مانهاتن. وهناك، يمضي اسكندر ساعة أو أكثر في المتحف الموجود داخل قاعدة البرج، يعيد قراءة كلمات الشاعرة الأمريكية إيما لازاروس المكتوبة على

لوحة تذكارية من البرونز. ثم يكمل رحلته إلى الأعلى حتى بلوغه التاج ذات الأسنة السبعة، مستمتعاً من هناك بمشاهدة خليج نيويورك وما حوله.

تعرف اسكندر هناك على بعض الطلبة العرب المقيمين أو المغتربين والذائبين في الحوت المسمى نيويورك، فكان مبهوراً مثلهم بالحانات والبارات وصالات السينما والتعري وقاعات العرض المسرحي والأوبرا ومتأثراً بثقافتها المتنوعة. لكنه في القوت نفسه كان يخشى من أبيه المتسلط الذي وصل تطرفه حداً يصعب معه التنبؤ بما يخبئه، إذ ما زال يحاول التأثير على اسكندر كي يكون على استعداد دائم لرفض أشكال الحياة الأمريكية الصاخبة. لذا لا يبدو تأثره هذا وانبهاره بالغرب العجيب عميقين إلى درجة تدفعه للانغماس في ذلك العمق الحاضن لكافة الألوان والأجناس والهويات بصورة مكتظة تنساب في مشاهد الحياة اليومية الدائمة والدائبة. بمعنى أنه كان على صلة بزملاء من هويات شتى يثملون ويرتادون البارات وأماكن الدعارة، وأحياناً يتعاطون المخدرات ويصطحبون الفتيات في المناسبات وأعياد الميلاد. يجمعون أكبر عدد من قصص العربدة والمغامرات الجنسية لكي يتبجحوا بها أمام أصدقائهم بلهجة متحذلقة عند عودتهم إلى أوطانهم. إلا أن اسكندر لم يجرب تلك الأشياء إلا في وقت متأخر، لا لكونه عصامياً يمشي بمواجهة التيار النيويوركي الجارف، إنما على اعتبار أنه كائن غامض نوعاً ما، قبل أن يكون هناك من يعرقل عليه سلوكه تلك الطريقة في العيش المغامراتي الصاخب، مشكلاً بذلك هالة من الخوف ظلت تحجب عنه تلك الملذات زمناً طويلاً، حتى جاء اليوم الذي كسر فيه تقاليد العائلة، فراح يدون في دفتر خاص ذكرياته السرية عن أول كأس ويسكي اسكتلندي ثمل به في أحد البارات، وعن أول فتاة جيكية قطع مسافة شاسعة لكي يضاجعها بعيداً عن عيني والده وأذنيه اللتين يقول أنهما تسمعان ضراط النمل !

وما زال اسكندر يمارس حياته الجديدة حتى انهيار برجي التجارة العالمية في نيويورك. آنذاك، لم يستغرب حين رأى أباه مغتبطاً، وهو يزين منزله بصورة تشي أن ثمة احتفال سيقام في تلك الليلة. وما أن وصل خبر الاحتفال هذا إلى بعض الجيران حتى نقلوه إلى الشرطة، فأُلقي القبض على جميع الأسرة، وانتشر الخبر في وسائل الأعلام، وبذلك تم إدانتهم والاكتفاء بطردهم من الولايات المتحدة الأمريكية.

بعد عودة العائلة إلى العراق واستقرارها في البصرة أرسل صدام حسين في طلب رب الأسرة، ولما وصل هذا إلى بغداد فوجئ بتكريمه وإعادته إلى كوادر الحزب، إلا أنه لم يباشر نشاطه الحزبي آنذاك، إنما لزم بيته حتى اندلاع حرب الإطاحة بصدام.

الغريب في الأمر هو انخراط ذلك الرجل في أحد الأحزاب السياسية المناوئة للوجود الأمريكي في العراق بعد حرب 2003، وما زال يمارس عمله حتى اختُطف يوماً من أمام داره الواقع في محلة مناوي باشا، قبل أن يتم العثور على جثته المرمية قريباً من نهر الخندق.

ما زال اسكندر حاني الرأس، تارة يسعل وأخرى يعطس ثم يفرغ في المنديل الأبيض ما علق في أنفه المحمر، إلى أن ابتدأ النقاش حول عنوان الرواية، وحدثت المشادة الكلامية بينه وبين ماجد.
قاما وتشابكا بالأيدي، لكننا وقفنا كالجدار بينهما. ولم يكف نزار عن تهدئة هذا ومعاتبة الآخر إلا في الوقت الذي صرنا أنا واسكندر خلال دقائق قصيرة خارج المقهى، حيث جلسنا هناك على أحد التخوت الخشبية.
كانت شفتاه ترتعشان وقد مضى الوقت سريعاً قبل أن تهدءا مع هدوء أعصابه وتلاشي الخطوط الحمر في عينيه وبلوغ أنفاسه الحدّ الطبيعي لكل من يتنفس الهواء. أخذ نفساً عميقاً وبدا كأنه يستجمع جرأة فقدها فجأة وهو يسلمني ورقة صفراء أخرجها من جيب قميصه العلوي قال أنه عثر عليها صدفة في باحة المنزل. كانت الرسالة مكتوبة بخطّ أنثوي ناعم يبدو أنه عائد لشقيقته سفانة، وموجهة إلى ماجد الذي كان اسمه مكتوباً في كل مكان منها لا سيما على القلوب التي رسمتها بمهارة. قرأت الرسالة مرتين قبل أن يخطفها إسكندر من بين يدي ويدسها في مخطوطة فصله الروائي الذي كان يحمله معه في تلك اللحظة. فأيقنتُ أنهما لم يتشاجرا بسبب اختلافهما على عنوان الرواية. وإنما كان ثمة شيطان دخل بينهما وجعلهما يصطدمان على هذا النحو المريب والمفاجئ.

ها هو الآن اسكندر يكتشف الأمر، شاكياً، متجرعاً ما كان في نظره غدراً أو استغلالاً قال أنه لن يغفره لماجد أبداً. فقد أشعره ذلك بخزيٍ أشبه بالنار التي أكلت قلبه وحثته على أن يهرب، وصوت نزار في إثره :

" لا تنس أن تجلب الرواية "

ويقصد رواية " خريف البطريرك " التي أعارها إياه قبل أيام. وإلى أن جاء صوته للمرة الثانية :

" إلى الغد.... "

حيث تأجل موعد توزيع نشرتنا الأدبية، كان إسكندر قد اختلط بالمارة في السوق. أما أنا فقد عدت إلى داخل المقهى ووجدت أن نائلا ما زال يصارع الدهشة مما رأى. فيما كان الوريد في رقبة ماجد منتفخاً أو على وشك الانفجار. كذلك هي الشرايين على ظاهر كفّيه. لقد كان يشهق مغاضباً، زافراً أنفاسه بصعوبة مثل ملاكم ركن نفسه للتو في زاوية الحلبة بعد أن بذل جهده في معركة مميتة.

أخذت بيده، وانصرفنا بعيداً عن المقهى، باتجاه الكورنيش. وهناك تحدثنا كثيراً عن الأدب والسياسة والجنس، ولم يأخذ الحديث عن المشاجرة التي حدثت سوى النزر القليل من وقتنا، أعترف فيه ماجد بأشياء صغيرة منها أنه في يومٍ ما وأثناء زيارته لاسكندر في المنزل، أعطته تلك الرسالة، لكنه أرجعها برميها من فوق الباب احتراماً لشقيقها، دون أن يعلم أنها بقيت في حديقة المنزل حتى عثر عليها اسكندر. لكنه في النهاية أنكر تورطه بعلاقة وثيقة مع تلك الفتاة التي يبدو أنها كتبت رسالتها بطريقة لا يشكّ معها القارئ أن ثمة علاقة حقيقية حدثت فعلاً بينهما.

ومع أنها كانت مكبوتة وحبيسة الغرف المعتمة في أكثر الأحيان، إلا أن ماجد لم يكن أول رجل تراه على هذا النحو، لكنه مع ذلك كان الأوفر حظاً بين الأشخاص الذين رأتهم في حياتها، إذ لم يسبق لها أن أمعنت النظر في وجه رجل ما، منذ أن كانت في الرابعة عشرة من عمرها. كما اعترفت هي بذلك عند زيارتها منزلنا بعد حادثة قتل والدها، وكانت تسأل عن المكان الذي انتهى إليه ماجد.

في اليوم التالي بدا نائل متشائماً من خروجنا لتوزيع نسخ العدد الأخير من النشرة، كأنه بذلك يتنصل من مهمته في توزيع حصته من تلك النسخ، وظل يماطل إلى أن تجاوز ذلك إلى الفرار بجلده، بعد أن زرع الريبة في نفوسنا وجعل القلوب تفقد طمأنينتها. وحدث أن أصاب حدسه التشاؤمي. وكان من حسن الحظ بالنسبة لنا، وسوءه الذي لحق بإسكندر فيما بعد أنه قُبض علينا بتهمة الترويج للأفكار الهدامة، في وقت لم يتبق فيه لدينا من نسخ تلك النشرة سوى نسخة واحدة رأينا إسكندر في الحبس يسحق الورقة الأخيرة منها ويدسها في فمه قبل أن تهبط إلى أحشائه الخاوية.

بعد ثلاثة أيام، خرجنا من الحبس، وصار الواحد منا يقرص أُذن صاحبه في مطعم رخيص يديره أحد المهاجرين المصريين في أحد الأفرع الضيقة وسط السوق. لكي نصدّق أننا خرجنا

فعلاً، وأن ما صرنا إليه حقيقة وليس محض وهم أو حلم سيتلاشى مع أول ضربة (كابل) يتلقاها الجلد المدبوغ بجذام السجون المظلمة.

في المطعم الصغير، أكلنا كفايتنا من " شوربة العدس " مع عدد من رؤوس البصل. في حين تنحى إسكندر جانباً، ويداه على بطنه مطبقتان، ورأسه يكاد يصير إلى حجره، من شدّة الوجع الذي خلّفته الأوراق الكثيرة لرواية " خريف البطريرك " لماركيز، وهي التي ظننا في البداية أنها النسخة الأخيرة، المتبقية من نشرتنا الدورية. وكانت خريف البطريرك هذه رواية شبه ممنوعة، وكان من الممكن جداً أن تجلب لنا المتاعب، كونها تتحدث عن جنرالٍ فاشيٍّ عصيّ على الفهم، شيمته القتل والتنكيل بكل ما هو إنساني، وفيه أيضاً شبه كبير من صاحبنا " الضرورة "

كان إسكندر يتضور ألماً بينا نحن نقضم البصل ونقهقه بملء أفواهنا، كالمجانين. كنا نضحك عليه ضحكاً مشئوما سرعان ما تحول إلى بكاءٍ ودموع غداة اليوم التالي في المستشفى عند جثته الهامدة. وكان أول ما سمعناه في تلك اللحظة، هو صوت أمه المفجوعة :

" سمموه " كانت تصرخ " سمموا ولدي.. أولاد الكلبة....! "

وما أن رأتنا، حتى ألقت بقناعها وانهالت علينا بنعلها ضرباً على الرؤوس، معنّفة، ناهرة إيانا بقسوة. كانت تبصق علينا وتشتم أسلافنا فيما راح نزار ينتحب عالياً ويرطم رأسه بجدار الردهة، حتى نزف الدم من جبهته، ولطّخ موضعه الذي تقرفص فيه باكياً.
ثمة فتاة مقنعة وموشحة بالسواد، لم يظهر من وجهها سوى عينيها الخضراوان الواسعتان. كانت تبكي بهدوء قبل أن يقع نظرها على ماجد الذي اقتربت منه كثيراً، وراحت تحدق فيه كما لو كانت تعرفه حقاً. أرادت أن تهمس في أذنه شيئاً ما، إلا أنه انتبه لوجودها فهرع مسرعاً إلى الخارج، فأيقنتُ أنها سفانة شقيقة اسكندر.

خرجنا من المستشفى جزعين، وكان نزار يلفّ رأسه بقميصه المليء بالدم، مما جعله وإيانا عرضة لأعين المارة الذين ألهوا نظرهم في التطلّع إلينا من كل ناحية. كانت نظراتهم شائكة يتجلّى فحواها في سؤال، قال مسعود أنهم غير معنيين بطرحه. لتكن محصلة الحقد المتفشّي في داخله : موجة من الزعيق راح يطلقه بوجه كل من يصوّب نظراته نحونا، إلى أن فقد

صوابه بالكامل وبدأ بمهاجمة كل من يصرّ على النظر إلينا بازدراء، وهو ما قاله حين وصل به المطاف إلى حالٍ لا يختلف عن حال صديقنا نزار، إلاّ أنه لم يبق عليه قميص ليلفّ به رأسه الذي تناوشته الأيدي بالضرب قبل أن يرتطم بالرصيف، فيسيل منه الدّم بغزارة.

وإلى أن تخلّص مسعود من عبء قهرٍ أثقل قلبه المفجوع، جذبته إليَّ:

" تشجّع يا مسعود " قلت له " قبل الآن، كنا في مشهدٍ يحقّ للناس أن يلقون علينا نظراتهم الفضولية. لقد اعتدنا على التطفّل، وصار كل شيء في هذه العتمة يدهشنا ! "

ثمّ مضى مسعود في طريقه خائر القوى. وكانت تلك آخر مرة نراه فيها صحيح العقل.

" لكن، متى كانت الدماء مشهداً يثير الدهشة ؟! "

عندما سألني نزار هويت إلى الصمت العميق، إجلالاً، ربما لأجل لا شيء، سوى الصمت نفسه، أو ربما لأنني تذكرتُ كيف بدا وجه إسكندر حين رفعنا عنه الشرشف الأبيض في الردهة المخنقة، فرأينا عينيه مفتوحتين على سعتهما والجمال على سطحهما يُعانق الموت.

أوصلتُ نزار إلى " الصريفة " المتهرئة التي يعيش فيها مع أمه. كان طوال المسافة التي قطعناها إلى هناك، يهذي بكلمات كان آخرها أقرب إلى السباب. وأغلب الظن أنه شتم ماركيز ولعن أقرانه من عمالقة الأدب والفن. لكنه و في ضحى اليوم السابع على وفاة إسكندر، رأيته في مقهى الترف، وكان يستغفر الأسماء التي كفر بها، كأنما يستغفر ربه.

(3)

كان مسعود مثالاً للأنتلجينسيا الواعدة التي أحيلت وبشكل فجائي، فجائعي خطير من العقل المبطن بالخوف إلى الجنون الذي يروي الحقيقة كما هي. وقبل هذا كان موظفاً فيزيائياً بسيطاً

يعمل في إحدى الشركات النفطية، ثم أرسلته الحكومة إلى موسكو في الثمانينات للدراسة ضمن اختصاصه لمدة عامين. لكنه مكث هناك ثلاثة أعوامٍ أخرى قبل أن يعود إلى العراق محملاً بالأفكار الشيوعية، وبصحبة طفل أشقر يُدعى ديمتري سامروف.

في هذه المدينة التي ترزح تحت وطأة عشرين درجة مئوية تحت الصفر شتاءاً، تاه مسعود في الشوارع الفسيحة قلية الزحام، حيث ندف الثلج يكسو سطوح المنازل والأشجار وكل مكان تقريباً عدا أسفلت الشوارع التي تبدو كبسط سوداء طويلة يحفها البياض الناصع في مشهد حلمي جميل. تتراقص في عينيه ألوان العمارات والبنايات المتنافرة والفنادق ذات الطابع القيصري بين الأصفر والبرتقالي والأحمر ثم السنجابي ثم الأبيض المثير المطعم بالزرقة. متأثراً بطابع المدينة الصارم، حيث الطوابير في كل مكان : على محطات الأوتوبيس، في المتاجر، على شبابيك المسارح والسينمات والملاهي، على المقاهي والمقاصف.

ومنذ الوهلة الأولى، سحره جمال الروسيات الأنيقات اللاتي يرتدين القفازات والمعاطف الثقيلة ويضعن على رؤوسهن القبعات الزرقاء والشهباء، وأُغرم بصفاء أعينهنّ التي يشعّ فيها الأزرق ولأخضر في صفاء مشرّب ببريق وجاذبية لا تُقاوم، فتارة تلمح فيها شهوة دافئة ولذيذة، وتارة أخرى ترى البراءة بكل نداءاتها الحميمة.

كان مسعود قبل سفره يسكن لوحده في بيت صغير ومتداع ورثه من أبويه الميتين. يكتب قصصاً للأطفال، دون أن ينشر منها حرفاً واحداً. لكنه حين عاد من رحلته تلك، كان بمعيته الكثير من القصص والروايات التي كتبها تحت التأثير الناتج عن قراءاته المعمقة لتشيخوف وغوغول وتولوستوي وبونداريف وشولوخوف وغوركي وباسترناك وغيرهم. لكنه كان متخماً بحبه لدوستويفسكي الذي قرأ أغلب أعماله هناك. وقد بلغ تأثره هذا حداً لم يعد يحتمل بعده أن يُذكر أمامه تورجنيف أو بيلينسكي أو نكراسوف، خصوصاً أنه قرأ مذكرات آنا غريغور ريفنا زوجة دوستويفسكي الثانية بالروسية، فتعرف على مواقفهم تجاه صاحبه. منذ ذلك الحين وهو يعيب عليهم قصر نظرهم وانقلابهم عليه لأسباب غامضة.

ويصف مسعود ابنه سامروف قائلاً انه كان جميلاً كالملائكة، أسماه " سامر " واختارت له أمه اسم عشيقها السابق " ديمتري " في حين كان صاحب الكشك الصغير في الشارع الذي يقطن فيه مع عشيقته يدعوه بـ " سامروف " بإضافة حرفي الواو والفاء، ثم صار الروس يسمونه ديمتري سامروف.

لقد تعرف مسعود أثناء وجوده في موسكو بفتاة أوكرانية جميلة تُدعى " إيفا " اجتذبت جميع حواسه، بدءاً من عينيه إلى لسانه، فأنفه ثم أذنيه وصولاً إلى أصابعه. وكانت إيفا هذه تعمل

نادلة في مقهى صغير يقع في شارع نوفي أربات الذي يجمع بين قدم الهندسة المعمارية وحداثة المطاعم والبوفيهات ومقاهي الرصيف المنتشرة على جانبي الطريق. إلا أن مسعود في ذلك الحين لم يشعر بما يشعر به المرء من النظرة الأولى، كأن تزداد سرعة نبضه. إنما استرعى انتباهه شيء آخر راح يخفق بعنف حتى كاد أن يخترق سحّاب بنطلونه.

في ذلك اليوم احتدمت حواسه دفعة واحدة، مما قاده إلى الشعور برغبة وحشية في رؤية ولعق ودعك وشمّ نهدي تلك الفتاة، في الوقت الذي يكون بوسعه سماع الصوت المهيج الذي يصدره لسانه الشره، كطفلٍ راح يلعق البوظة بنهم بعد طول حرمان. ولعل إيفا هذه هي التي جعلته يتكلم الروسية بطلاقة، إذ ترك فروضه الدراسية وانهمك بدراسة تلك اللغة وتعلمها لكي يكون بمقدوره اختيار أكثر الكلمات تأثيراً ثم زجها في رسائله الغرامية التي يعود ليمزقها في اليوم التالي، قبل أن يهرع إلى الحمام ويبكي هناك ردحاً من الوقت أثناء ممارسته العادة السرية، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يمارس فيها عادته منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره.

وذات يوم بلغت جرأة مسعود حداً لم يشعر بعده بالتردد، بعد أن احتسى كمية كبيرة من الفودكا، وهو يضع رسالة تحت النقود التي اعتاد تركها على المنضدة بجوار النافذة المطلة على الشارع. اختفى بعدها شهراً كاملاً عاش خلاله تداعيات نفسية نتجت عن ولهه بتلك الفتاة ذات الجاذبية الجنسية المثيرة، وعدم قدرته على إبهارها وجذبها إليه. وفجأة، في مساء يوم من الأيام التي أعقبت قراره النهائي باعتبار تلك القصة منتهية، ظهرت له إيفا بوجهها الضاحك الناصع البياض وعينيها اللتين طغت فيهما الزرقة بشكل مخيف، من خلل الثقب الدائري في باب الشقة. إذاك، راح مسعود يصارع قوة الإغراء المنبعثة من تلكما العينين الماجنتين، ويشمّ رائحة الممنوع المرغوب المتمثلة صورته في جسدها اللذيذ الذي راحت تجرده من السروال التحتي وحمالة الصدر الحمراء.

كانت إيفا ما تزال تطرق الباب، في اللحظة التي كان مسعود يتساءل فيما إذا كان متأكداً إلى هذا الحد من أن حمالة صدرها حمراء فعلاً. لكنه وفي لحظة غاب فيها وعيه بضرورة تحتم على امرأ مثله عدم فتح الباب لها، امتدت يده إلى المزلاج، فشعر حينها بشفتي إيفا وهي تطبع على خده قبلة كبيرة لكنها باردة أذنت له باصطحابها إلى السرير ومروره بأكثر الأجزاء في جسدها متعة وإثارة لشهوته المرتبكة.

تلك القبلة.. كانت تشبه شارة المرور الخضراء في تركفلايت التقاطع الذي تستدير منه الحافلة لتدخل في الطريق المؤدي إلى شارع نوفي أربات حيث يقع المقهى. حينذاك استفاق مسعود من رحلته التخيلية، فترجل من الحافلة الكبيرة مواربياً بمعطفه أثار استمناءه على البنطلون. وهناك وجد نفسه بمواجهة المقهى الصغير، ورأى امرأة تلوح بيديها من وراء الزجاج المزين برسوم بابا نويل وشجرة عيد الميلاد، قبل أن تستأذن من رب عملها، ترتدي معطفها الفرو وتخرج راكضة

نحوه كما يراها دائماً في أحلامه، ثم تحتضنه وتقبله، مصطحبة إياه إلى الشقة، حيث اكتشف هناك أنها لا تحب ارتداء الحمالة.
الغريب في الأمر أن إيفا نامت مع مسعود في تلك الليلة دون أن تفكر في سؤاله عن جنسيته أو الأصول التي ينحدر منها، مكتفية بنعته بالرجل النيادرتالي العنيف. الأمر الذي لم ينزعج منه مسعود بقدر انزعاجه من اسم ديمتري الذي راحت تردده بينما هو يفتك بجسدها تحت الشرشف القطني الناعم.

كان مسعود متوحشا في تلك الليلة، ومارس الجنس بعنف وطريقة بدائية تمزق على إثرها الواقي الذي أخرجته إيفا من حقيبتها ونصحته بأن يحسن استعماله بينما هي تُلبسه النتوء الخائف في وسطه.

يقول مسعود عن تلك الليلة :
" آه كم كنتُ غبياً في تلك اللحظة ومصعوقا وخائفاً، ولم أزل في السروال الداخلي. اكتشفت ذلك وأنا في الشارع، بعد أن ارتطمت بعشرات المارة وسمعت ما يكفي من الشتائم التي لم افقه منها شيئا. كنتُ ابحث عن صيدلية، ما أن وجدتها حتى فوجئتُ بأنني لا اعرف الترجمة الحرفية لعبارة حبوب مانعة للحمل ! لكني أجدت تمثيل دور من لا تريد الحمل أمام البائع الروسي البدين، فعرف ما أريد وأعطاني مانشيتا أقسمت بأن افرغ محتواه من الأقراص المانعة للحمل في أحشاء إيفا قبل أن تنتفخ. لكني عندما عدت إلى الشقة، لم أجدها هناك! "

لقد اختفت إيفا بسرعة، لأنها لم تكن تعلم بأمر الواقي. إلا أنها عادت قبل انتهاء فترة الدراسة بأيام، وكانت في الشهر الثامن من الحمل. أخبرها مسعود بأنه سيعود إلى بلده قريبا، وكأنه دعاها بذلك إلى البكاء. لقد بكت كثيرا وتكلمت قليلا، وقبلته قائلة : " سأراك قريبا " فتعجب من قولها متسائلاً عما إذا كانت هناك فرصة تجمعهما مجدداً، وهو الذي يتأهب للعودة إلى العراق حيث محلته الغارقة بالمجاري الآسنة، والبيوت الشبيهة بالقبور في ليالي الوحشة التي يتحدّث عنها شيوخ الدين. حاول نسيان الأمر وصار لا يفكر إلا في أمر العودة التي أصبحت وشيكة. غير أنه فوجئ بأفراد من الشرطة في مطار " شيريمنتيفيو " بوجوههم الوسيمة وملابسهم الزرق الفاتحة وهم يمنعونه من السفر في اللحظات الأخيرة. وسرعان ما اكتشف أن إيفا حجرت عليه، فصار مجبرا على البقاء في روسيا مدة أطول حتى يتقرر مصير الطفل.

خلال السنوات الثلاث التي أمضاها مع إيفا في شقتها الواقعة في شارع كتوزوفسكي، على مقربة من المقهى التي كانت تعمل فيه، أخذ مسعود على عاتقه الاعتناء بالطفل، كذلك عكف على قراءة كتب لينين وماركس ودراستها بشكل تفصيلي، فضلاً عن قراءاته المعمقة للأدب الروسي وارتياد المسارح والمكتبات والمتاحف وصالات السينما. غير أنه كان دائم التردد على مسرح البولشوي حيث عروض الباليه والأوبرات، أيضاً جاليري ترتيا كوفسكي الذي أدهشته فيه أعمال ليفتسكه، كارافاك، كيبرنسكه، فشناياكوف، نيكيتين، أنتروبوف، تروبينين، فيدوتوف، ريبين. كذلك يتردد باستمرار على بيوت الأدباء المعروفين : تولستوي، تشيخوف، وآخرين إلى درجة أن علاقة حميمة نشأت بين ابنه سامروف الذي كان يرافقه في أغلب الأحيان، وبين العجائز الروسيات اللاتي يعملن في تلك المتاحف والمنازل المشهورة.

وطوال تلك الفترة واظب مسعود على القيام برحلات سياحية نهرية، مذهولاًَ بالحدائق وقبب الكنائس الذهبية تحت شمس موسكو الخادعة، كان يرتقي سبارو هيل أو تلال العصفور، ليتأمل من علو مدينة موسكو الباهرة. ولم يسبق له أن شعر بالكلل إزاء زياراته المتكررة للكرملين حيث الساحة الحمراء وكاتدرائية سينت باسيل وكاظانسكي والمسيح المنقذ على ضفة نهر موسكوفا. علاوة على ارتياده متحف موسكو التاريخي وبرج سباسكايا، قبل أن يمر في طريق عودته على مجسمات غوغول وتشيخوف في منطقة نوفودوفيتشي.

في حين كانت إيفا تتنقل من عمل إلى آخر. فمن نادلة في المقهى إلى عاملة مصعد، ثم عاملة غرف في فنادق الدرجة الأولى، ثم عاملة تجرف الثلوج في الشوارع ليلاً، ثم قاطعة تذاكر في المسرح قبل أن ينتهي بها المطاف كعاملة في المطار.

" آه يا طفلي الذهبي المسكين..." مسعود متألماً وهو يروي قصة ابنه سامروف : " لقد ولد وتربى بيننا طوال ثلاثة أعوام، تعلم خلالها بعض الكلمات العراقية العامية المألوفة، لكن أمه هجرتنا وعادت إلى عشيقها الأول "

لقد عاد مسعود إلى البلد بصحبة ابنه في نهاية الثمانينات، إذ دخل إلى إيران عبر أذربيجان بصفة غير شرعية، قبل أن يُهربا إلى العراق بعد انتهاء الحرب.

مات ديمتري سامروف بعد ثلاثة أشهر من وصولهما إلى المدينة. غرق في قناة لمياه المجاري بعد إهماله من قبل أقرباء مسعود الذي كان وقتها معتقلا على خلفية تأخره ثلاثة أعوام في روسيا " واستغلاله فترة الدراسة لتحقيق مآرب شخصية " كما جاء في تقرير مديرية المخابرات العامة، مما دفعه إلى الغرق في ضحالة الحياة التي تلقفته فور خروجه من السجن، إذ وجد نفسه وحيدا

في الخربة التي يسكن فيها، كما كان من قبل، بعد أن فُصل من عمله وصار مراقباً بسبب انتمائه الفكري حينذاك.

كان من المفترض أن يتم مسعود كتابة فصله الروائي في غضون ثلاثة أسابيع، لكنه تأخر بسبب التصليح والتشذيب الذي يأتي عادة بعد كتابة المسودة الأولى. هكذا كنا نظن في البداية، غير أن الذي تكشف لنا فيما بعد هو أن مسعود صار في عداد المجانين، ولعلني أول من انتبه لتطور هذه الحالة بدءاً من إهماله لنفسه : ثيابه المتسخة، رائحته الكريهة، أظافره الطويلة القذرة، شعره الأشعث. فضلاً عن نوبات هذيانه الخطيرة التي يبدو أثنائها وكأنه مصاب بالزهايمر.
هذه الأعراض كانت في نظر أفراد الجماعة نوعاً من الدعابات أو الخزعبلات التي صار مسعود يطعم بها أحاديثه مؤخراً، في حين لم يخف عليهم أمر إهماله لنفسه على هذا النحو المقرف، وشتائمه التي راح يكيلها للسلطة على غير عادته، بعد أن كان يتوجس من أحاديثنا السياسية قبل هذا الوقت. وشيئاً فشيئاً بدأ الجميع يعتقدون بالمنحى الفوضوي الأقرب إلى الجنون الذي كان مسعود يسلكه تباعاً، حتى وصوله إلى حالة بات من الصعب عدم اعتبارها اختلالاً عقلياً راح يتحول خلاله مسعود من سيء إلى ما هو أسوء بكثير من كونها دعابات وسفسطات أو صعلكة مصطنعة لا يحسن أمثال مسعود إجادتها. إذاك، لم نرى مسعود إلا قليلاً، قبل أن يختفي تماماً، ونجهل باختفائه مصير الفصل الذي كتبه.

" ترى ما الذي أصابه ؟! "

تساءل نزار مستغرباً عما حلّ بمسعود و أضرّ بكيانه وجعله كالمتسوّلين، ذا رائحة نتنة كتلك التي تنبعث من المزابل والقاذورات. كان وجهه ملتحياً بالجفاف، كذلك هي عيناه البائستان، كانتا تحملقان في الأشياء الواجمة من حوله : النارجيلات، الأقداح، التقاويم، التخوت المتهالكة، ينظر إليها ببلاهة عندما باغت ماجد عزلتنا في الركن الأثير من مقهى الترف بتحيّته الفاترة، وبدأ يروي لنا كيف إنه رأى مسعود في السوق حاملاً حقيبته وسط حشدٍ من الناس.

" وبعد ؟ "

بسط نزار يديه بالسؤال.

" دقائق " ردّ ماجد " دقائق وإذا بالمتفرجين على جنونه يتقافزون كلاً في وجهة لا يعلمها، هرباً من شتائمه التي راح يكيلها للحكومة. بينما تسمر هو في مكانه وبدأ بإطلاق ضحكه الجنوني، ثم راح يبكي قبل أن أجزم أنه لم يصطنع البكاء بقدر ما كانت دموعه التي انهمرت بكاء حقيقياً. لقد كان يرثي لوركا صائحاً " أنه مات شهيداً، وأن دمه المراق ما زال يلطخ إسفلت ساحة أم البروم، وعظامه في قبرٍ حفرته النوارس في شطّ العرب ! "

مسعود قبل:

كان مسعود في قمة معاناته وعدم قدرته على البوح بما لا يمكن إطلاقه إلا بإباحة دمه الفقير – صار يعاني من فقر الدم مؤخرا – وكثيرا ما يردد مقولته الشبيهة بالحكمة : " وحدهم المجانين يعرفون الطريق، لكنهم يجهلون الوجوه، ففي هذه المحرقة، كل يستهلك مقعده ليتوسد التراب ! "

لقد اعتاد على توظيف الأساطير واستنطاق الحيوانات في قصصه : الدببة والخنازير، القردة والكلاب. يشاركه ماجد الذي أفرط في استعمال هذا الأسلوب، فضلاً عن كتابة أعماله بالانكَليزية هرباً من مقص الرقيب الحزبي المتربص وراء مرقابه : ينتظر هفوة منه ليحشره في زنزانة ضيقة متر في متر تمهيداً لساعة الحشر الأكبر ربما في قبر سيجهل مكانه في العراء.

مسعود بعد:

من خيوط الحقيقة التي يأبى العالم أن يبوح بها ينسج صورة الوطن. يلعن الحروب وقوادها. يسرح في العراء مثل حصان هائج. يحفر قبره بيده، ثم يدخل فيه، ويصيح :

" الرئيس يسكن في قصور منيفة، وأنا أسكن في الخرائب مع الكلاب ! الرئيس ينام على فراش من القطن الزراعي الناعم، وأنا أنام على جلد حمار! الرئيس ينهش بأسنانه البيض من فخذ غزال مشويّ، وأنا ألعق العظام ! الرئيس يتعطر بأجود العطور الفرنسية، وأنا أتعطر بالخراء ! الرئيس يدخن السيجار الكوبي الفاخر، وأنا أدخن لفائف الروث !! "

هاهو الآن يأوي بعد تسكعه المعتاد في شوارع السوق المزدحمة، إلى إحدى المزابل. تتدلى على صدره قلادة صنعها من أغطية قناني المشروبات الغازية. يصفّ العلب الفارغة، يصنع منها هرما، ثم يرفسها بقدمه وهو يشير بأصبعه إلى المارة المتحلّقين حوله، زاعقا :

" هذا إرثكم !!"

في الشارع الذي يقع خلف أحد الكَراجات في السوق الكبيرة. قريباً من شجرة سدرٍ عملاقة، هناك حيث البيئة التي لا تصلح حتى لعيشة الكلاب التي تأتي لتقتات فقط، من قمامة المطاعم.
مسعود لاكماً نزار بقبضته. الدم يسيل من أنف الأخير الذي يبتعد عنه، ملقياً باللائمة عليَّ لأنني لم أصحبه في خطواته نحو مسعود و محاولته الفاشلة لاستدراجه، والحصول على مخطوطة الفصل الثالث من روايتنا الجماعية.
نزار يرفع رأسه. عيناه مصوّبتان إلى السماء، وأنفه بين إبهامه وسبابته، يضغطه بقوة، لكن دون فائدة. فالنزف لم يتوقف عند الحد الذي توقعنا أنه سيقطع دابر المشكلة، وذلك بالضغط على ألأنف الطويل.

دائما ما يأوي مسعود إلى هذا المكان حين يشعر بالتعب – أن للمجانين قوة مناعية كبيرة تتحدى بعنادها شتى الأمراض ولسع البعوض، ولدغ الأفاعي والعقارب، والداء الذي تسببه أنياب الكلاب المسعورة – ويبدو أنه غير مكترث لما ألحقه بنزار – الابتسامة لا تكاد تفارق شفتيه المتشققتين، مع أنه قبل أن يُلحق بركب المجانين ذوي الألسن التي تدرّ حقائق جريئة، لم يكن يبتسم إلا في ما ندر – هو الآن بالعكس لا يعبس في الوجوه، نضِرة كانت أم متجهمة، شريطة ألا تقترب منه أكثر من خمسة أمتار، وإلا فأن ما حصل لنزار قد يحصل لأيّ أحدٍ غيره، في حال أنه أصرّ على اجتياز الخطّ الأحمر الذي قرره هو بجنونه. لكن نزار أصرّ على المغامرة، رغم أن صوت صاحبه هدر في أذنيه مثل ذبذبة مرعبة آتية من البعيد.

" لا تقترب أكثر..... اليمنى قاتلة !... "
كأنها جرباء، يطفح على جلدها الوسخ، ويكنّ الذباب.

" واليسرى جارحة...."
تبدو صحيحة، مع أنها قذرة أيضاً، ومكسوة بسخام قدور أوحى إليه جنونه : أن اسلق فيها الرمل يا مسعود، واطعم به يتاماك الجياع !

" لا أريد الحياة..... ولا أريد الموت.... "

إذن، ماذا تريد يا مسعود ؟!

فصاح:

" أريد أمي...!! "

وأخذ يصرخ. مع كل خطوة يخطوها نزار نحوه. يصرخ ووجهه يتجعد، أكثر، فأكثر، مثل الأوراق التي يسحقها بين أصابعه، بعد أن يملأها بالسرد الفاحش ليلاً، ويفض كلماتها العذراء مع إطلالة الصباح الأثيرة.

وهنا جنى نزار ما لم يكن ضمن أمانيه الضحلة. لكمة قوية أسقطته أرضاً، وخلعت نظارته عن عينيه، حتى صار مثالاً للأعمى.

إن ما تفوه به مسعود من كلام الأيدي القاتلة والجارحة قد سمعناه قبلاً من أفواه " أشقياء " المدينة. وكان يضحك منهم كذباً ويقول. " كلام مجانين! "

<u>في المقهى:</u>

كان نزار مشغولاً بنفسه، ممددا على أحد التخوت الخشبية. قريباً منه : وقف الحاج سبتي صاحب المقهى، يحاول إيقاف النزف بقطعة ثلج ملفوفة في خرقة بيضاء متّسخة.

" توقف النزف ! "

صاح الحاج سبتي فرحاً، وتأفف ماجد معلناً ارتياحه، في حين دخل نائل إلى المقهى، ورأى ما رآه من حال نزار، فتساءل مستغرباً : " ترى ما الذي أصاب السمكة ؟! "

(4)

" **لا** بدّ أن نجمع الرواية... "

قال نزار وكان ما يزال واضعاً قطعة الثلج الملفوفة بالخرقة على أنفه المتورم.

" ومخطوطة إسكندر ؟ " أردف نائل، متحمساً مع شيء من الأسف : " أليس من الواجب أن نحصل عليها أولاً ؟ "

فأجاب نزار مؤكداً : " طبعاً.. "

ثم أومأ ببوزه نحوي قائلاً : " وأنت.. هل أكملت مخطوطتك ؟ "

" نعم.. "

كان ماجد يجلس إلى جانبي على التخت، فلكزني بمرفقه، هامساً في أذني :

" هل أحرقتها.. " ثم عاد وفعل الشيء نفسه، مؤكداً : " مخطوطتي.. هل أحرقتها ؟ "

" نعم أحرقتها... "

ولكي يتمكن نائل من كتابة الفصل الأخير من الرواية، أخرجت من تحت قميصي مخطوطة كتبتُ على غلافها بخطٍّ أحمرٍ عريض الرقم (5) وأعطيتها إياه.

كان نائل يعيش مع أمه وشقيقته التي كان يذكرها فقط، دون أن نراها أو نلمح طيفها يوماً ما. ومنذ البداية، عندما تعرفنا عليه نحن الأربعة : أنا ومسعود وماجد ونزار أثناء تردده على المقهى في العام 1998، كان نائلاً يتصرف كشخص فيه من غرابة الأطوار ما جعله يظهر أمامنا بصورة يبدو خلالها كما لو كان مهاناً وخائفاً من شيء أو شاعراً بأنه لا يستأهل العيش في عالمٍ مقرف كهذا، باحثاً في الوقت نفسه عن مكانٍ ليس له وجود إلا في مخيلته. وهو ما تشي به مجموعة القصائد التي طلب منا تقييمها، قبل أن نعرف انه كاتب قصة متميز، فنصحه نزار بترك الشعر جانباً كونه كاسداً هذه الأيام ولا يمكن أن يجد نفسه وسط هذا الكم الهائل من الشعراء، وبالمقابل طلب منه الاهتمام بالسرد الذي يعتبره سيد الحرف الأدبية على الإطلاق.
ودائماً ما يقف نائل أمام واجهات المحال التي تبيع الألبسة والاكسسوارات والأحذية والحقائب والقطع الداخلية والحفاظات النسائية فترة طويلة. ويسأل الباعة عن أسعار علب الماكياج وأحمر الشفاه والكورسيه وطلاء الأظافر والجوارب النسائية والأساور وأقراط الأذن ومستحضرات التجميل ومزيل الشعر والعطور الجنسية وحملات الصدر. الأمر الذي نقف عنده طويلاً لنتناقش فيه

ونتكهن ثم نتوصل إلى نتيجة طبيعية فيما لو كان نائل متزوجاً، لكنه ورداً على سؤال ماجد له في إحدى الأمسيات، نفى أن يكون كذلك، إلا أنه لم ينكر شعوره العاطفي تجاه طالبة جامعية برجوازية لا تعبأ به، بالرغم من وسامته المفرطة. وهو النوع المفضل لدى نساء تلك الطبقة. ويعلل نائل سبب ولعه المستمر بالكماليات والمستلزمات النسائية إلى نيته بإغراء تلك الفتاة وجذبها إليه. وحين راح يشتري تلك الأشياء علمنا أنه تمكن أخيراً من الإيقاع بفريسته التي بات تخيلها من الأمور المتعذر تناولها، إذ ما زال نائل يصفها بأشكال مختلفة فيها من الجمال الباهر ما يخلب لبّ السامع قبل الرائي، دون أن يفكر بالثبات على أيٍ من تلك الصور الجميلة. أيضاً هو لا يرغب باستلال صورتها التي يدعي أنه يحملها في جيبه طول الوقت لكي يرينا ذلك الجمال الملائكي الخارق الذي صرنا نحلم برؤيته أكثر من أي شيء آخر من الأشياء التي يتحدث بها.

كان نائل شاباً وسيماً جداً، ببشرة بيضاء ناصعة فيها شيء من حمرة تزين وجنتيه وشفتيه على الدوام، ووجه لم تنبت فيه شعرة قطّ. مما جعله عرضة لشباك اللوطية والمتصيدين في دور السينما ومقاهي أم البروم، وأثناء وقوفه أمام بسطة " ناصر " بائع الصحف على مقربة من سينما الكرنك، فيتجمع حوله أصحاب الشوارب الغليظة في مشهدٍ يبدو فيه كسمكة زينة زاهية الألوان تمتد إليها صنارات الصيادين من كل حدب وصوب، مما يسبب النكد لبائع الصحف الذي يبدأ بالصياح ويطرد نائلاً من أمام بسطته، فيتنحى هذا الأخير جانباً ببنطلونه الجينز وتيشيرته الضيقين جانباً حتى مجيء ماجد الذي يشتبك أحياناً مع أولئك المتحرشين، قبل أن ينصرفا معاً صوب مقهى الترف.

إضافة إلى ذلك كان نائل يحلم بالهجرة إلى أميركا، ويتحدث عنها كثيراً، دون أن يشعر بالملل وهو يلحّ على اسكندر بأن يصف له نيويورك ونيوجرسي ولوس أنجلوس ودوتريت وغيرها من الولايات الأميركية، مستفسراً عن أكثر الأماكن جذباً هناك، فكان اسكندر لا يجد مانعاً من الإجابة عن أسئلته مع أنها مملة ومتفرعة على الدوام، فيشرع بوصف شارع " ماديسون " في نيويورك حتى يحفظه نائل في مخيلته أو يرسمه على هواه، ثم يبدأ التجوال فيه، ذاكراً تفاصيله وتفرعاته ولوحات الإعلان الضوئي فيه، وواجهات المحال والملاهي وقاعات الديسكو في نيويورك، دون أن يعير اهتمامه لسخرية ماجد اللاذعة، عدا ما نلحظه قبل انصرافنا من علامات الانزعاج التي تبدو على وجهه، لكنه سرعان ما يجيبه في نهاية الحديث بابتسامة أنثوية غامضة، ويتغنج مازحاً كالمراهقات وهو يقول :

" سأقضي وقتاً ممتعاً هناك، أغطّ عارية في حوض من السيراميك ذا لونٍ ورديّ براق ومليء بالحليب الطازج، وقريباً من نهديّ تطفو حبات الزيتون وأوراق الياسمين العطرة، وبينما ترقد أنت

في الجحيم، أفكر أنا بالاتصال بك من هناك، أو ربما أرسل لك بطاقة تهنئة بمناسبة أعياد رأس السنة، هأ... هأ !! "

تلقف نائل المخطوطة، ولفّها في جريدة كان يحملها معه. وقد زاد على ما فعله أنه نهض قليلاً ودسّها تحت مؤخرته، وهو يتلفّت يميناً وشمالاً وأمامه وحتى من خلفه مع أن ليس ثمة شيء سوى الجدار الذي يتّكئ عليه.

تثاءب ماجد طويلاً في اللحظة التي بدأنا فيها الحديث عن مخطوطة إسكندر وكيفية الحصول عليها، فصدقنا أنه يشعر بالنعاس ويريد أن يأوي الساعة إلى الفراش، مع أن علامات التصنع بدت طافية على وجهه، مما دلّ على نيته في الهرب من حديثنا الوشيك. وقبل أن يغادر طلب من نائل أن يصحبه لبضع خطوات. فأسند الأخير صاحبه كما يُسند السكّير وخرجا من المقهى. كنا نراهما خلف الواجهة الزجاجية لمقهى الترف، يتحاوران في أمرٍ ما، ولم يبدُ على ماجد أنه ما زال يشعر بالنعاس، فقد بان من حركاته واستنفاره للغضب في داخله أنه في كامل صحوته، لكن يبدو أنه مُستفزّ وعلى وشك أن يصفع نائل الواقف أمامه كالمذنب. وبدلاً من أن يفعل ذلك: بصق في وجهه، وكان بإمكاننا سماعه جيداً عندما نهره قائلاً :

" أبله .. أبله ... ! أعرف أنك أبله ولا تصلح لشيء .. اللعنة عليك وعلى أناهيد عزرة.. أيها الخـ ... !! "

وعندما أقبل نائل لم نعرف ما كان يمسح عن وجهه : هل هي دموعه المتساقطة بفعل الاهانة ؟ أم أنها بقايا البصقة التي سمعناها تخرج من فم ماجد إلى الوجه الأملس ؟
و سرعان ما تغيرت ملامحه وأشرقت نصف ابتسامته الأنثوية التي اعتاد أن يمطرنا بها كلما شعر أنه عالق في موقف عادة ما يكون فيه هو المُحرج الوحيد والمعرّض للتساؤل. فرك راحتيه بين فخذيه وأعاد إلقاء تحيته التي سمعناها منه عند دخوله المقهى أول مرة :

" كيف أنتم يا أولاد ؟ "

فردّ نزار بامتعاض : " في غاية القرف..! "

وكان الأصح أننا في غاية الجزع على فقيد المجموعة إسكندر، ومسعود أيضاً الذي أُدرج في عداد الأموات.

" حسناً.. " كرر نزار ذلك وهزّ رأسه متأوهاً للدلالة على أن ثمة شيء صار الآن في قبضته، وتابع باهتمام : " يمكننا الحصول على مخطوطة إسكندر أولاً "

اغتبط نائل وبدا متشوقاً أكثر مني لمعرفة المزيد. وعلى الرغم من شتات أفكاره، إلا أن ثمة فكرة أضاءت في رأس نزار. ومع أنها فكرة خطيرة لكننا توهمنا أن الحكمة فيها تغلب الخطر، فاستقرت الطمأنينة في نفوسنا ونحن نصغي إلى حديثه الذي اقترح خلاله استغلال العلاقة بين ماجد وسفانة شقيقة اسكندر من أجل الحصول على المخطوطة. تلك العلاقة التي طالما أنكرها ماجد واكتشفها إسكندر في ذلك اليوم الذي تشاجرا فيه، مع أن الرسالة كانت عائدة لشقيقته، لكن الكلام المدوّن فيها يشي بما يمكن أن يكون ذا دلالة على أنهما متحابّان. طبعاً ماجد لن يقتنع بالفكرة، لكننا سنحاول إقناعه، فليس ثمة أمل يلوح في الأفق سوى ما فكر به نزار.

لا أكاد أعرف عن ماجد سوى القليل بالرغم من أنه عاش بيننا فترة ليست بالقصيرة، إلا أنه كان كتوماً في أغلب الأحيان، ولا يرغب باستعادة الماضي على شكل حكايات يقصها علينا، لعلمه أن أسئلتنا تتفرع كل حين، حتى تبلغ حداً لا يستطيع بعده الامتناع عن البوح بأسرار لا يرغب بإفشائها. لذا يمكن اختصار سيرته على النحو التالي :
ولد ماجد في مدينة العمارة التي تبعد عن البصرة مسافة وأكمل تعلميه هناك قبل أن يُقبل طالباً في كلية التربية قسم اللغة الانكليزية في جامعة البصرة. بعد التخرج التحق لأداء الخدمة الإلزامية في إحدى بطريات مقاومة الطائرات التابعة للفيلق الثالث في البصرة – الدير. وكان طوال تلك الفترة مولعاً بعشق فتاة ريفية متزوجة من جاره.
الذي حدث في تلك الفترة هو هروب ماجد من الجيش، مصطحباً الفتاة معه إلى البصرة، حيث سكنا أحد الفنادق الرخيصة في شارع الكويت. وكان ذلك الفندق أشبه بمبغى سريّ مأهول بزبائن العاهرات اللاتي يلجئن إليه هرباً من فدائيي صدام بعد مجزرة شارع بشار. إضافة إلى ذلك يُعد هذا الفندق ملاذاً آمناً لكثير من طالبات الأقسام الداخلية والموظفات والقرويات اللاتي يبعن السمك والقيمر في ساحة سعد أو أم البروم. الأمر الذي لم يشعر حياله ماجد بالانزعاج، إذ ما زال يبحث عمن يؤويه من أصحاب الفنادق الذين أقل ما كانوا يطلبونه في مثل هذه الحالات هي قسيمة الزواج، حتى عثر على أحد السماسرة الذي قاده بدوره إلى هذا المكان.

بعد أربعة أشهر داهمت الفندق المشبوه قوة مسلحة من فدائيي صدام الملثمين، واعتقلوا من فيه قبل اقتيادهم في حافلة كبيرة إلى جهة عير معلومة. في تلك الأثناء كان ماجد بصحبتنا في المقهى الذي اعتدنا الجلوس فيه مساء كل يوم، ولم يمض على تعرفنا به أنا ومسعود سوى أيام. وبالرغم من المسافة القصيرة التي تفصل الفندق عن المقهى، إلا أن شيئاً من الذي حدث لم يتناه إلى أذني ماجد إلا في وقت متأخر، عندما عاد إلى غرفته في ذلك الفندق ولم يجد فتاته هناك.
بعد هذا الحادث انتقل ماجد إلى فندق آخر لا يقل وضاعة في ساحة أم البروم، هرباً من ملاحقة ذوي الفتاة، فاعتزل فيه فترة من الزمن، ثم ظهر بعدها ليؤكد لنا أن عشيقته قُطع رأسها ودفنت مع الآخرين في قبر جماعي. ثم لم نره بعد ذلك لأكثر من عام بعدما أُلقي القبض عليه من قبل الانضباط العسكري في أحد أسابيع الضبط وسيق إلى وحدته العسكرية في الدير.
مضت فترة طويلة لم يقم خلالها ماجد بمغامرة جديدة، حتى جاء اليوم الذي عرّفنا فيه على إسكندر، حينذاك سمعنا أنه يواعد شقيقته سراً.

لكن ماذا لو لم يكتف بالحديث معها من وراء السياج ؟ ماذا لو أغرته بالتسلل.. هل سيفعلها؟ كل هذا من أجل الحصول على مخطوطة ؟!... اللعنة عليها !
بدأ القلق يأكلني واستمر طوال المسافة التي قطعتها من المقهى إلى البيت بل تعدى لحظة وصولي بساعتين، طُرق بعدها الباب طرقاً فوضوياً صادراً من يدٍ خائفة وعندما هرعت لأرى من الطارق فاجأني نائل بوجه مصفر بدا في غاية الهزال . سألته عما دهاه، فردّ كالغريق :

" لقد ضاعت المخطوطة..! "

صعقني الخبر، وارتعشت قدماي، جمعتُ أصابع يدي اليمنى لأكون قبضة أرجعتها إلى الوراء حتى يتسنى لي دفعها إلى الوجه الذي أفلت وسامته، وذبلت نضارة العينين الكبيرتين فيه، فأدمي له شفتيه، أو ربما أحد جفنيه. بيد أنني أوعزتُ لشتات أعصابي : أن تمسكي، قبل أن أكبح جماح سخطي إزاء صاحب الرأس المنكس أمامي في الفراغ، وهو ينشج :

" لقد نسيتها حيث وضعتها على التخت الخشبي في المقهى. وحين تذكرتها عدت لاسترجاعها دون أن أجد لها أثراً. سألت عامل المقهى، لكنه لم يعطني جواباً شافياً وقال أن المكان يتردد عليه الكثير من الناس، والتخت الذي شغلناه يجلس عليه العشرات يومياً "

عند هذا الحدّ بلغت أعصابي من الهدوء ما جعلني أستحي مما أوشكتُ على فعله وهو معاقبة نائل ولو بصفعة صغيرة على الأقل. لكنني أشفقتُ عليه عندما راح يبكي كالتلميذ المذنب أمام معلمه. ربتُّ على كتفه. أردتُ أن أدخله إلى البيت، لكنه أبى ذلك وفضل الانصراف بعد أن استردّ ماء وجهه وانجلت الصفرة عنه.

" لا عليك يا صديقي " بادرته بالقول " سأكتب غيرها ... "

ثم غادر.

ومكثتُ أنا في غرفتي أزيح عن ذاكرتي غبار النسيان في محاولة عقيمة لاستحضار ما تبقى في مخيلتي من أحداث الفصل المفقود، وأدونها بشكل مختصر ليتسنى لي كتابتها فيما بعد على نحوٍ أدق. إلا أن شعوراً غزيراً بالإحباط لازمني بشدّة، حتى بدا إصراري آيلاً للأفول، لكنني وعلى الرغم من ذلك، بدأتُ بملء الأوراق ثم تمزيقها، ثم كتابتها من جديد.

ومضى الوقت سريعاً حتى أنه من شدة انفعالي واشتغالي المحموم في تلك الليلة لم أسمع الباب يُطرق ثانية.

هذه أمي تطل برأسها من دون سائر جسدها لتخبرني أن صديقي نزار يريد رؤيتي، وهو يقف الآن عند الباب. كانت الساعة على الجدار تجاوزت عقاربها الثانية بعد منتصف الليل. ترى ما الذي دهى نزارا ليدهم عزلتي في مثل هذا الوقت ؟ كان السؤال بديهياً يمكن أن يخطر لأي كائن في مثل هذه الأوقات المتأخرة من الليل. وإذا كان لا بدّ من معرفة الجواب، فلدى نزار ما يسوّغ به مجيئه المباغت هذا.

فتحت الباب وإذا به يقف في العتمة ويخبرني بوقوع المحذور. وجدته ينوء بحزن بلغت مرارته القصوى حدّاً طُليت على إثره عيناه المحولتان بحمرة القهر، وهي الحمرة التي لا تكاد تفارق أعين المغدورين، عندما أنبأني بمقتل ماجد!

كأن جداراً حديدياً هُدّ على رأسي فجأة. فتناثرت في إثره أشلاء قدرتي على النطق وتسلل الخواء إلى قدمي اللتين لم يعد بوسعهما حملي. فهبطت إلى الأرض، وفعل نزار مثلي بعد أن جذبني من ياقة قميصي إلى صدره المتعرق ولم اعرف وقتها نشيجه من كلماته المتقطعة.

" ليس كما تظن" قال " وإنما هو المجهول! "

" وأي مجهول ؟!! " صحتُ بوجهه فطأطأ رأسه مردداً :

"هذا الذي يحيط بك.. ألا تراه ؟! " ثم أكمل لكن بصوت باكٍ :

"وذاك الذي خلفك... والذي أمامك.. وذاك.. وذاك.. وذاك.. .. على يمينك وعلى يسارك..!!
"

أغمضتُ عيني لبرهة شعرت خلالها بيديه تتركان ياقة قميصي وبكتفه الساخن يلامس كتفي. وحين نظرتُ إليه رأيتُ حاله أشحّ إرادة من حالي. كان متكئاً على ذات الجدار ويداه على فخذيه وقدماه الطويلتان بسطهما، تماماً : كمتسوّل ضرير. عينا نزار ترمقان السماء المعتمة بنظرات فارغة ملؤها اليأس. وببطء تحركت شفتاه اللتان طالهما ملح الدمع الغزير:

" قتله ذوو إسكندر..! "

قال، وإذا بالدهشة المشوبة بالمرارة تتملكني دقائق معدودة ظلَّ فيها حدسي القائل أن ماجداً ربما تحدى روح الخوف الكامن في ذاته فأفشى سرّ تعلقه بالتغيير، فقاده لسانه إلى المقصلة، ليموت في زنازين السلطة ميتة الجرذان. فيما كانت الكلمة تقتفي إثر صاحبتها من فم نزار، ثقيلة ومتقطعة أحياناً :

" قبل مجيئي إليك، دُقَّ عليَّ باب الصريفة ، وكان الزائر الغريب والد إسكندر. جاء ليخبرني أنهم قتلوه، وعلينا نحن أصدقاء السوء الذين علمناه الشعر وسرد موبقات العالم الثالث، أن نُخلي جثّته فوراً، قبل أن تأكلها الكلاب! صرخت بوجهه المكفهر من شدة خراب الرحمة في حضيض نفسه : لماذا قتلتموه ؟! فأجاب ببرود :
" لأنه يستحقّ ذلك..! "

نهضنا من مسقط جزعنا على ماجد، وسرنا معاً في الظلمة باتجاه المكان الذي تُركت فيه جثته، وصوت امرأة من داخل منزلنا تولول على ولدها الذي تخشى أن يلقى مصيراً مشابهاً لمصير إسكندر ومسعود وماجد الضحية الأخيرة.
وفي الطريق إليه، سيشرح لي نزار كيف أن ماجداً خدعنا بعدم اكتراثه بـ " تلك العاهرة.. لا أعرف كيف يولد رجل قلبه كقلوب القديسين مثل اسكندر ويكون شقيقاً لفاجرة!.. .. كيف.. ؟!
"

سيركض نزار... سيركض.. يركض، لا يهمه أن كان ثمة حفرة عميقة أمامه، أو أسلاكاً شائكة ستمزق قدميه، أو حتى حقلاً للألغام. المهم أن يصل إلى جثة القتيل. أنا الآخر سأركض، لألحق به. وحين أصير على مقربة منه سأهزّه بعنف، وأقسم عليه أن يخبرني عن مكان الجثة.

وإلى هناك.. .. حيث تتحلّق عدة أشباح كالثعالب حول فانوس، بضوئه الخافت تكشّف الستار عن جثة انكبّ صاحبها على وجهه في التراب. سيشير بيده قائلاً :

" ذاك هو.. "

بصوت أقرب إلى الهمس " رأوه يتسلق السياج الخلفي ليقفز إلى برّ الطمأنينة، لكنه ما أن هبط إلى الأرض وركض ليتخفى في الظلام، حتى اخترقت الرصاصة ظهره..! "

"بهذه السرعة ؟! "

" شششش... " نزار محذِّراً " ها هم الآن.... " وحين وصلنا قال أحدهم معنفاً :

" هذه حثالتكم... "

وقال آخر: " خذوها أيها المثقفون..."

عينا نزار فيهما تبرق الدموع، وهو ينظر إلى الضحية تحت أقدام الجناة الذين سينسحبون إلى مخادعهم ولذة قتل النفس ما يزال زبدها يسيل على لحاهم الكثة.

حين ذاك سيكون ثمة متسع للبكاء، وسيرمي نزار بنفسه على الجثة الهامدة " ألم يكن يريد استغلاله قبل الآن ؟! " ها هو الآن يرسل نشيجه الخافت وليس سوى الكلاب خلفنا وأمامنا وفي كل مكان ترسل نباحها الأجش جواباً.

جثا نزار على ركبتيه، و في نيّته أن يمدّ يده ليكشف ظهر القتيل، عندئذ سيجد ثقباً صغيراً تكاد العين المجردة أن لا تراه. وإذا قلب الجثة على ظهرها سيرى بقعة هائلة من الدم، في حين ستسقط من بطنه إلى الأرض قطعة كبيرة من اللحم الميت ! حمراء كالكبد تثير أمعائي فأتقيأ.

يدس نزار يده في الجيب العلوي من قميص الضحية ويخرج منه ورقة صفراء ملوحاً بها كالأبله، فيما عيناه تشهيان قراءة ما جاء فيها من كلام العشق المقتول.

" هكذا ألقى ماجد الحجة على نفسه وهو ميت.. " قال نزار " وستكون هذه الرسالة دليلاً واضحاً على حقيقة أن علاقة واقعية كانت تربطه بسفانة شقيقة إسكندر"

ناولني الورقة فلمحتُ في ضوء الفانوس، الأحرف الأولى من اسميهما لأتمكن من القول أنا الآخر أن ماجداً لقي حتفه بسبب علاقته الغامضة مع تلك الفتاة. ربما كانت تلك رسالته الأخيرة نسي أن يسلمها إلى عشيقته. فيا لها من نهاية مؤلمة، تلك التي ختم بها ماجد حياته. ها هو أخيراً يسقط ويجفّ عوده ويستحيل إلى يباب ! تُرى لماذا كذب عليَّ حين طلبت منه في ذلك اليوم أن يكفّ عن تلك الفتاة وهواها المستحيل ؟ لقد قال أنه لا يعرفها وليس ثمة ما يربطه معها سوى كلمات تافهة لا معنى لها يتبادلانها عادة من وراء الباب. غير آبه بما وقع بيد شقيقها إسكندر، وهي تلك الرسالة الحمقاء التي أطلعني عليها شاكياً مرارة الاكتشاف و بدا كأنه يشكو من عار طال جبينه.
لم نتركه في العراء خشية أن تأكله الكلاب، كما لم نفكر في دفنه مخافة أن يُجهل قبره. لكننا فكرنا أخيراً في الاتصال بالشرطة التي ستحمله إلى المستشفى ليودع هناك في ثلاجة الموتى. وبعد يومين على الأقل سنتمكن من تسلم الجثة بصورة رسمية بعد تشريحها، ثم يكون بمقدورنا دفنه بسلام من دون مشاكل في مقبرة توارى فيها جثامين الأطفال حديثي الولادة.

(5)

في غرفة صغيرة مستأجرة في فندق من فنادق الدرجة العاشرة و الذي تطل نوافذه الخشبية القديمة على ساحة أم البروم التي تضجّ فيها أصوات الباعة والعمال والمتسولين، كان يسكن ماجد مع أوراقه وقصصه وخيالاته الجامحة مثل جياد مجنحة تحاول أن تكسر أقفال العزلة وتحلق عالياً في فضاء من الحريات اللا متناهية من دون شرط أو قيد يحولان دون هيامه بالحياة.
في تلك الغرفة وبعد أكثر من شهر على مقتل ساكنها لا حظنا أن نزار راح يهمل كل ما يقع في يديه من مخطوطات وكراسات وأوراق كان ماجد قد ملأها بالسرد والقصائد والدراسات

والرسوم الخلاعية والتجريدية المقززة. وبدا كأنه يبحث عن شيء غير الذي جئنا لأجله بعد إلحاح طويل وتوسل مستمر بصاحب الفندق البدين لكي يسمح لنا بالدخول إلى الغرفة والبحث عن مخطوطة ماجد التي لم يأبه نزار حين قلت له أنني أحرقتها بطلب منه بعد أن أتممت كتابة فصلي على ضوئها. فكانت الساعة اليتيمة التي أمهلنا إياها هي الثمرة الوحيدة لتوسلاتنا، وقد شارفت على النفاد، ونزار لم يزل يبحث تارة بشكل عشوائي وأخرى بشكل دقيق، حتى بدا لنا كمن أصابه الخراب في عقله.

سألته معنفاً : " عمَّ تبحث ؟! "

فالتفت إلينا و طلائع البشرى تملأ عينيه المتراقصتين. وفي الأعلى من رأسه : بيديه المتربتين، رفع المخطوطة التي أخرجها من أحد الصناديق المركونة :

" ها هي الآن...! "

تلك هي مخطوطة ماجد، فاتنا انه ربما احتفظ بنسخة منها بالانكليزية. وبعد شجار كلاميّ مع صاحب الفندق لأنه رفض تسليمنا ما كنا نتصوره تركة يحق لنا أن نرثها من صديقنا الميت، غادرنا الفندق حانقين.

ليلاً، في البيت، قادني الفضول لفتح رسالة العاشق المغفل ماجد وقراءتها بالكامل. لحظة ذاك، اقشعرّ بدني الهزيل عجباً عندما اكتشفتُ أنها الرسالة نفسها التي أطلعني عليها إسكندر في ذلك اليوم. ذات الكلمات المغموسة بدم الشوق الأخرق. نفس النقوش والقلوب المتلهّفة والمرسومة على حواشي الورقة الصماء. كذلك هو غزل القوافي الساذجة، هي، هي، لم تتبدل. ترى ما الذي حطّ بها في عتمة جيب المسكين ماجد ثانيةً ؟! " فكرتُ : هل هي سفانة : التي وضعت تلك الرسالة في جيبه الخاوي فيما هما يتجرعان لذّة عناقهما الشهوي المحموم ؟ مع أنها كانت بحوزة إسكندر قبل أن يموت وقد أراني إياها وكان الحياء المشوب بالعار المسجى في وجهه يندى من جبينه المجعد قبل أن يضعها بين الأوراق في مخطوطته التي كان يحملها معه يوم ذاك.
أخيراً، لم يكن أمامي سوى الثبات على يقيني القائل أنها ذات الرسالة التي عثر عليها إسكندر في حديقة المنزل .

في اليوم التالي، حملتُ مخطوطة رفيقنا القتيل إلى مترجم تربطني معه صداقة قديمة لغرض ترجمتها من الانكليزية إلى العربية، لأن البقية من أفراد الجماعة : لا يعرفون من الانكليزية سوى بعض المفردات، باستثناء نائل الذي تعلمها في الكويت قبل طردهم منها ثم أتقنها في كلية الآداب قسم اللغة الانكليزية. إلا أن شبه الرجل – هكذا يطلق عليه ماجد أحياناً بسبب شكله الذي يوحي بالأنوثة – أبى أن يترجم المخطوطة معللاً السبب في عدم قدرته على التركيز، لأن كلمات ماجد ستعود عليه بالحزن والذكرى الأليمة مما يفقد الترجمة دقّتها. ولم أكن أنا بأفضل حال من نزار، مع أنني أتفاخر دائماً بحفظ بعض الكلمات اللاتينية، فضحكتُ في ذلك اليوم رغم الأسف الذي كان يجوس في أعماقي حزناً على نهاية المؤلف التعيسة بعد أن قرأت أسماء فواكه وخضراوات وأدوات طهي أتى ذكرها في المخطوطة وعلّقتُ على ذلك قائلاً :

" يبدو أن فقيدنا استنطق الفواكه والأواني هذه المرة ! "

إشارة إلى أسلوبه المشفّر في سرد الواقع باستخدام الأقنعة الفنية في العمل الروائي واستنطاق الحيوانات والجماد والنبات، خوفاً من مقص الرقيب ومخابرات ثقافة السلطة.

مضت أيام قبل أن أتسلم ترجمة المخطوطة من صديقي المترجم، الذي فاجأنا بدخوله إلى المقهى فتوجس نزار ونائل خيفة منه، لكنه ما أن صافحني ثم جلس قريباً مني على التخت الخشبي، حتى أدركا أنه صديقي المترجم، وقد بدا من هيئته محرجاً ومتردداً في ما يريد قوله. لحظات وتكلم الرجل، فيما رحتُ أصغي إلى همسه متأسفاً حتى انتهى من حديثه فشيعته إلى خارج المقهى، حيث سلّمني هناك المخطوطة المترجمة. وعند عودتي محبطاً وإمارات الحزن والكآبة تملأ وجهي سألني نزار :

" ما الخبر ؟ "

فأجبته بنظرة قانطة تلقفها بيأس وكأنه أشرف على حقيقة الأمر.

منذ دقائق وقبل مجيء المترجم كان نزار يتكلم بصوت خافت كي لا يسمعه المخبرون عن آمال الباقين من المجموعة وتطلّعاتهم وإصرارهم على المضي في إصدار نشرتهم السرية من جديد لكن بأسماء مستعارة هذه المرة.

لقد كان نزار طوال حياته يكره السياسة، لكنه يعشق الحرية ويحارب من خلال الكلمة. تخرج من معهد المعلمين أواسط التسعينات، بيد أنه رفض الالتحاق بالخدمة العسكرية في الجيش، اقتداء بعرّابه ماركيز، ولم يكن أمامه سوى امتهان بيع السجائر على أرصفة المدينة، والتجوال في ربوعها ببطاقة مزوّرة. حتى أمه التي ليس له غيرها في هذا العالم لم يكن يقدّسها كتقديسه للروائي الكولومبي ماركيز، لذا كنا نحن أصدقاءه ندعوه بابن القديس ماركيز أو مجنونه الذي كان يوبخنا لأننا نقرأه قراءة سطحية لا ترقى لما تتمتع به رواياته وكتاباته من قوة وقدرة على الفضح والبوح واستيعاب شتى ألوان الطيف الواقعي السحري والتعبير به عن الواقع بجمالية الفن الروائي الحديث. وقد وصلت ردوده على آرائنا المتعارضة مع بعض ما يذكره عن ماركيز حدٌّا يمكن وصفه بالتطرّف.

كان نزار أيضاً قارئاً نهماً، ليس لأحلامه أو طموحاته حد يقف عنده مشروعه الإبداعي وكان يسخر من الذين يقولون أن التفكير بالشهرة بداية لسقوط الفنان في مستنقع الأحلام الكاسدة.

" أنا لا أحلم بالشهرة " كان يقول دائماً " بل أحلم بالنجاح..."

لذا كان يهيم في أصقاع تفكيره هذا ويحلم في أن يغدو في يوم من الأيام كماركيز وهمنغواي وبورخس ودوستويفسكي وغيرهم فيملأ الدنيا ويشغل العالم بإبداعاته وأفكاره الخطيرة. لقد كان حساساً للغاية وقد بلغت حساسيته المفرطة حدّ البكاء علناً عندما قرأ مقالاً قال فيه كاتبه أن كتابات نزار ليست إلا ضرباً من ضروب التقليد وأن صاحبها لا يعدو عن كونه مثقف جرائد، وهو ما نشكّ في صحته لأننا نعده المعلم المثقف بحقّ، لكننا في الوقت نفسه نعد تعصبه لماركيز وتلقيننا أسلوبه الشائك والمتميز تمادياً ليس ثمة مسوغ له طالما أننا نبحث عن الجديد.

مرة، دعانا نزار إلى تبني أسلوب ماركيز في كتاباتنا وكانت المحصلة أننا توهمنا بأن نزاراً ربما صار غير قادر على الابتكار جراء التصاقه بالواقعية السحرية. وعندما علم بذلك حزن وتألم واعتزلنا لفترة من الزمن. ثم عاد برواية قصيرة اكتشفنا عند قراءتها أننا كنا على خطأ حين ظننا أنه صار عاجزاً عن ابتكار الجديد الذي يميزه عن غيره من الكتاب. وكنا وقت ذاك نتبادل نتاجنا فيما بيننا، فجاء دور نزار ليطلع عليها فراح يلتقط عيوبنا الفنية والأسلوبية بملقط ثقافته الواسعة التي اتهموها بالقصور. فألغى أسماءنا وجعل مكانها أسماء المشاهير من الكتاب إشارة إلى اقتفائنا آثار الأولين وتأثرنا المفرط بطرائقهم وأساليبهم في الكتابة.

مقهى الترف.
غادرناه بصمت. دون أن يعرف أحد السرّ الذي كان وراء تجلي الحزن والكآبة في صورتي بعد تسلّمي ترجمة المخطوطة من صديقي المترجم. وعند نقطة افتراقنا قرب أحد الكَراجات مددتُ يدي إلى نزار الذي تلقف مني المخطوطة ببرود، فبان على وجهه أثر الصدمة التي بدا كأنه ينتظرها منذ زمن بعيد. فيما لم يرفّ لنائل جفن قطّ عندما راح يبحلق بعينيه المتسعتين إلى ترجمة المخطوطة : " حسناً فعلت يا ماجد... " نكاية قال " أنه كتاب تستحقّ أمي أن تقرأه، لتتعلم كيف تطهو لنا اللحم مع العجينة بشكل صحيح.. هههههه !! "

منذ ذلك اليوم ونزار ما يزال متوارياً عن الأنظار قبل أن أكتشف أنه مفقود. سألتُ عنه والدته في القبر الذي يعيشون فيه فقالت أنها لم تره منذ أن خرج قبل ثلاثة أيام.
بحثتُ عنه في المقاهي والأسواق دون أن أجد له أثراً. إلى أين يمكن أن يذهب ؟ سألت نفسي وأنا في طريقي إلى كورنيش المدينة حيث وجدت الشارع مزدحماً بالمارة والتماثيل. ثمة ضجة اندلعت فجأة فتجمهر حولها الناس. كانوا يتفرجون على عدة أشخاص يبدو أنهم أصحاب نفوذ اتشحت وجوههم بالصرامة والقسوة. وقد أخذتهم الهمة في ضرب وركل رجل راح يتوسل إليهم بينما رأسه تحت أقدامهم يسحقونه بحقد.

(6)

لم أسمع نزار يصرخ قبل الآن. خيل لي أنه هو حين حملوه كديكٍ في طريقه إلى السلخ ! صوته، ثيابه إلا أن وجهه كان مغطىً بالدماء، وعندما فتح عينيه لبرهة ونظر من وراء قضبان القفص الحديدي في مؤخرة السيارة كتمتُ صيحتي :

"اللعنة عليه.. إنه نزار !.... "
وتلك هي عيناه المحولتان، أنا أعرفهما وقد خدش ما فوقهما فسال الدم على وجهه بغزارة. لبثتُ في مكاني لا أحرك ساكناً، وكنتُ عاجزا عن النطق عندما حاولت مناداته باسمه. أعدتُ المحاولة لكن السيارة انطلقت محشرجةً حتى توارت في ما وراء الزحام. ذهبت بعدها إلى أمه لكي أخبرها، وقفت أمام باب الصريفة أفكر بأخفّ الكلمات وطأة عليها، لكنها فاجأتني بوجهها

الناحل الممتصّ وسؤالها عن ولدها: " أين غدا به الدهر ؟! " ولما رويتُ لها ما حدث أطلقت صرختها المدوية، وبكلتا يديها لطمت خديها وضغطت بأظافرها على اللحم المترهل في وجنتيها ثم انتزعت عصابتها السوداء فتكشف شعرها الأشيب وهي تولول أمامي وتجهش بالبكاء. وحين انهارت تلقفتها بيديّ، من هول الصدمة ظننتُ أنها ماتت، إلا أنها أفاقت لأعلم بعد انقضاء دقائق صحوتها تلك أنها ماتت فعلاً!

نظرتُ من حولي، لم يأت أحدٌ البتة، رغم أن صراخ المرأة قبل موتها بلغ آذان القاصين ومن كان على مقربة من المكان : " لكن.. لمَ لا أرى أحداً ؟ " تركت سؤالي وبدأت أكشف عن دهشتي بحراك يديّ اللتين خلتهما ميتتين تحت رأسها. حملتها إلى فراشها في الداخل، أغلقت عينيها، ووضعت عصابتها على وجهها، ثمّ رحت أتجول في الصريفة، فاستوقفني المكان الذي كان نزار يقرأ فيه ويكتب. هناك في حجرة صغيرةً ذات عتمة أزلية ورائحة هي رائحة التراب.

في الأشهر الأولى لتعارفنا نهاية العام 1995 كان نزار يستضيفني في تلك الحجرة كلما أتيت لزيارته، ليحدثني عن أخيه الروائي المفقود، فيما كانت أمه تجلب لنا الشاي من دون سكر وأحياناً مع تمر محشوٍ بالدود ، فنقضمه بعد أن نُخرج اليرقات السود الصغيرة المحشورة فيه، ليخفف من مرارة الشاي. وكنتُ أستمع إلى شكواها ومعاناتها بسبب المرض – اضطرابات في القلب – وصعوبة الحصول على أقراص " الأنديرال " ثم يأتي دور نزار لتكشف عن عناده وعدم التحاقه لأداء الخدمة العسكرية في الجيش، وهنا تنحني الأم المقهورة لتهمس في أذني طالبة مني أن أنصح ولدها بالذهاب إلى الجيش، وإلا فأنهم سيقبضون عليه ويودعونه في السجن، وسينتن هناك حتى يشيب شعره فتموت من دون أن ترى عروسه التي لو رأتها فعلاً إضافة إلى أولاده فأنها ستموت وهي مطمئنة. وهو ما تفوهت به في آخر زيارة قمتُ بها لهم في صريفتهم المتداعية فضحك نزار ضحكته الأليفة وقال، فيما عيناه يكاد الدمع فيهما أن يبوح بما يعتمل في صدره :

" لا تخافي يا أم القهر.. ! "هكذا كان يدعوها دائماً " سأموت قبلك!... "

" عمت عيني.. " تصفع الأم خديها ثم تصرخ : " تموت قبلي ! "

فيطلق نزار ضحكته بجنون وإذا أفرط فيها يبدو كأنه يبكي :

" سترين يا أم القهر.... سترين !... "

فكان ذلك مدعاة لسخطي عليه واتهامي إياه بتعذيب والدته، فما كان منه إلا أن يكفّ عما هو فيه ويعطف على المرأة بتقبيل رأسها مدعياً أنه كان يمازحها فقط. لكني لم أعلم حتى الآن من الذي مات قبل الآخر: نزار أم والدته. ذلك أن السجن بالنسبة لنزار ليس كما يظنه الآخرون ممن راحوا ينقشون بأظافرهم على الجدران معاناتهم الأبدية. كان السجن في نظره موتاً : " بل أنه الموت الحقيقي للإنسان، إلا أنه ليس حقاً.." هكذا كان يقول، لذا هو يمقته وأن تطلب الأمر فأنه سيستعجل الموت نفسه ليتخلص من حياته العبثية البطيئة.
ربما توقف قلبه الغضّ في اللحظة الأولى التي أدخلوه فيها إلى السجن الذي زاره مِراراً ولم يمت. ربما لأنه يعلم بخروجه منه عاجلاً أم آجلاً. ورغم ذلك، في كل مرة يُعتقل فيها يبدأ نزار بالشكوى من ضيق في صدره، فيبدو مثل سمكة على اليابسة ما إن استوحشت المكان واستنشقت الهواء الفاسد من حولها حتى بدأت بالتخبط في التراب.

فكّرتُ في الدخول إلى الحجرة وانتشال مخطوطة نزار من بين الأوراق الكثيرة والكتب المنتشرة في كل مكان، قبل أن تصيبها لعنة الضياع، لكنني وفي لحظة فضولية مزعجة، أزحتُ العصابة السوداء عن وجه المرأة الميتة، فأرعبني مرأى عينيها وهما مفتوحتان، مع أنني أغلقتهما بيدي قبل دقائق. ومع ذلك عدت وأغلقتهما مرة ثانية، ليزداد فضولي في أن أخطو هذه المرة نحو الحجرة وأفتح الصندوق الخشبي الذي كان نزار يودع فيه أشياءه المهمة فلعلني أعثر على المخطوطة، لا سيما أنني شعرت وقتها أن ثمة من يقف وراء اختفاء مخطوطة ماجد، وإلا ما الحكمة من تأليف كتاب يعلم النساء كيف يطهين الطعام ؟ إلا أن أمراً ما حدث فتلاشت في إثره رغبتي الوشيكة في العثور على مخطوطة نزار عندما التفتُّ إلى المرأة التي من المفترض أنها شبعت موتاً، فرأيتُ من جديد ما لم أستطع أن أدحضه هذه المرة أو أدعي أنه ليس سوى وهم من نسج المخيلة، حيث عينا أم نزار على سعتهما مفتوحتان تبحلقان في السقف الواطئ ! للحظة أحسستُ أنني زائل، من فرط خوفي مما رأيت وأراه يتطور، هذا الحدث الغريب ، أنه يتنامى حتى يصل استغرابي ذروته. والأعين المتلصصة توخزني بنظراتها المظلمة من وراء النافذة المطلة على الشارع : ترى لماذا ينظرون إليَّ هكذا ؟، ويلصقون شفاههم في الزجاج ؟! وهذه العجوز، ألم تمت ؟ لماذا تنظر إليّ هي الأخرى وتمدّ يدها أيضاً ! تلك اليد، أتذكرها جيداً، ترى هل هي قوة الموت تحركها هكذا ؟ تلك اليد، نعم ، كانت ترتعش، تهتزّ بعنف، بقوة الموت الذي يحركها، وهي التي شجعتني على الهروب من ذلك المكان. لا أعرف أي وجهة سلكت، لكنني وجدتُ نفسي في المقهى. أزعجني دخان

السجائر والرائحة النتنة المنبعثة من المجرى في الخارج. عينا أحد المخبرين – هكذا ظننت – تطاردان نظرتي الغريبة. وعينا الحاج سبتي تنصحاني بالانصراف. فغادرت المقهى إلى البيت .وهناك، في غرفتي الصغيرة، سجنتُ نفسي حتى داهمني النعاس. فأسدلتُ طرفيّ ونمتُ ولم أفق إلا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. نعتُّ نفسي بالجبان، قتلتُ مخاوفي وخرجت من دون أن أجيب عن تساؤل أمي عما أصابني وإلى أين يمكن أن أذهب في ساعات الصباح الأولى حيث لا مقهى يفتح أبوابه الآن، لكنني قصدت الصريفة التي تركتُ فيها جثة أم نزار بالأمس، وحين وصلتُ إلى هناك لم أجد الجثة في مكانها، كذلك أثاث الكوخ، نهبوه مع أنه لا يساوي شيئاً. تنشقتُ رائحة غريبة ظننتُ لدقيقة أنها رائحة الجثة التي اختفت. دخلتُ إلى الحجرة فوجدت الفوضى تعمها : الأوراق والكراريس وصور الأخ المفقود، كذلك الكتب، جميعها تناثرت هنا وهناك وفي كل مكان من الحجرة، كأن أحداً ما قبلي عبث بها ونقب عن المخطوطة حتى في الجدران الطينية التي حُفر قسم منها. وبعد أيام من الحيرة والقلق والتساؤل " ترى أين اختفت جثة العجوز ؟! " علمتُ أن بعض السابلة انتشلوها من نهر صغير تجري فيه المياه الآسنة يقع قبالة الصريفة التي تسكن فيها مع ولدها نزار.

وبضياع مخطوطة نزار ضاع كل أمل كنتُ أدّخره ورأيتُ أنها النهاية غير العادلة التي كان مصير نزار آخر خيوطها المجهولة. نهاية مشروع أيقنتُ في لحظة من لحظات القنوط المُفجع، أنه محض غباء، أو ربما ضربٌ مهلكٌ من ضروب الجنون أقدم عليه ثلّة من هواة صناعة الإبداع وعرضه بمنتهى ما توهموا أنها جرأة. هواة نقل الواقع وفضح مريدي الخراب لمجايليه من البشر بكل ما يحمله من مآسٍ وكوارث وعفونة وتفسّخ. فخرجنا من معطفه مكللين بالخواء، حتى هوينا على ما التبس علينا من الوهم الأخرق فظننا أننا قادرون على مجاراة الشر المستشري في عروق الواقع وكنس وساخته وإجلاء أحلامنا التي يكاد أن يكون التأجيل طابعاً أبدياً لها.

سوف لن أدعي أنني بحثتُ عن نزار في كل مكان، إذ ليس من الممكن أن أفعل ذلك على كثرة ما يوجد من السجون والمعتقلات. بيد أن السبب في اعتقاله أتاح أمامي بصيصاً من الأمل في العثور عليه. لكن أيتاح للسمكة أن تعيش خارج الماء ؟ ما أن تذكرتُ طبيعة نزار تلك حتى داهمني اليأس من جديد، في ما عزمتُ عليه الأمر، وهو اقتفاء أثره في سجون " التسفيرات " ومراكز التدريب، هذا لأنه كان متخلفاً عن أداء الخدمة في الجيش، ومن المحتمل أنهم سيحاكمونه في محمكة عسكرية ثم يودعونه في أحد سجون مراكز تدريب المشاة في المدينة. هذا إن كان حياً، عندها سيكتفون بقطع أحدى أذنيه ووشم جبينه بقطعة حديدية

ساخنة بمثل علامة الطرح في الرياضيات، دلالة على خلوه من المشاعر الوطنية وتقاعسه عن خدمة الوطن. لكن عبثاً هي نتيجة رحلتي في البحث عن نزار. لم أعثر حتى على اسمه، لا في سجون التسفيرات ولا في جحور مراكز التدريب. لم يبق سوى مراكز الشرطة، وهذه فتّشتُ فيها حتى آخر مركز في الأقضية والنواحي، لكن دون فائدة. ربما قتلوه... لكن لماذا يقتلونه وهو نزار سمكة الذي أقسم أن يموت قبل أن تنقضي ساعة على دخوله إلى السجن ؟ لأقل أنه مات تلقائياً، قتلته حساسيته إزاء قرف الزنازين المخنقة، فرموا جثته في ثلاجة الموتى إلى جانب جثث مجهولي الهوية. أو ربما ألحقوها بأقرب حاوية للنفايات أو أنهم حملوه كما يحمل الصياد السمكة ثم أودعوه في قبرٍ مجهول تحت شجرة عجفاء في عراء " البرجسية " حيث موطن المقابر الجماعية. تلك المقابر لم يخش نزار من أن تلتقط آذان المخبرين حديثه عنها في المقاهي والأماكن العامة وكانت الدموع تسقط من عينيه ساخنة، حزناً على أخيه الذي روى له أحد الناجين كيف أنهم دفنوه حياً مع أكثر من ثمانين فرداً.

ماجد معقباً :
" ما أدراك ربما صهروا جسده في برميل من الزفت المغلي، كما حدث في ساحة سعد ! "

تلاه مسعود بقوله :
" أو ... أو ربما ملئوا بطنه بالبنزين ونسفوا أحشاءه برصاصة حارقة ! "

فنفى نزار ذلك مع تأكيده بأنهم طبقوا كلا الطريقتين على سواه.

كان محدودب الظهر في جلسته، يضع يده على جبينه ومرفقه على فخذه والدموع ما تزال تسقط من عينيه على وجنتيه، قال :
" كانت السماء غائمة حينما خرجت في إثر أخي الذي هرب حاملاً معه مخطوطة رواية كتبها قبل الحرب، غير آبه بصراخ أمي التي أُغمي عليها. كانت الحرائق في المدينة ما يزال الدخان يتصاعد منها في المباني والمدارس والدوائر والمساجد والسيارات العسكرية المحترقة. وهناك رائحة الجثث المتعفنة التي تنبعث من المستشفيات والأنهار وبراميل القمامة، وعلى الأرصفة المثلومة التي رأيت أخي واقفاً على أحدها أمام البنك المركزي. وكان مسنداً ظهره على قاعدة تمثال بدر شاكر السياب، وبدا من وقفته وملامح وجهه الأسمر أنه ينتظر أحداً ما. قريباً منه ثمة جثث مفرومة تحت سرفة دبابة أخذت النيران تحرق في مفاصلها، فيما كوِّمت إلى جانب تلك الجثث ثياب عسكرية وأحذية، وكان أخي ينظر بعينيه الخائفتين إلى

كلاب هزيلة انشغلت في عراك دامٍ حتى الموت، في حين راحت جراؤها تلوك بأنيابها اللحم البشري قبل فساده. سيل من القنابل تسقط على المدينة والنيران ما زالت تدلع ألسنتها المحرقة من خلل نوافذ البنك المركزي المطل على شطّ العرب.

الهلع أصابني بالشلل تماماً وأنا في غمرة ضياعي، إذ شعرت بالأصابع تقبض على ذراعيّ بقسوة وصوت تهستر صاحبه راح يقرع في أذنيّ " ما الذي جاء بك.. أحمق ! "

كانت الدبابات خلفنا تنفث دخانها الأسود وصوتها المرعب يقترب بسرعة كبيرة. لعن أخي صديقه الذي لم يأت بعد، فربما ضرب موعده معه عرض الحائط، أو... ربما قُتل في الطريق إليه برصاصة تائهة أو شظية سلكت طريقها إلى رأسه. كان يريد الهروب من البلد لكنه حُوصر من قبل الوحدات الخاصة في مدرسة مع لفيف من الهاربين "

في هذه الأثناء قاطعته سائلاً :

" هذا يعني إنكما افترقتما ؟ "

فأجابني بـ " نعم " وفي عينيه رغبة تفشت أخيراً لإنهاء الموضوع، ثم قال :

" افترقنا في المكان الذي وجدني فيه بعد أن أخبرني بنيته، وأقسم عليّ أن أعود إلى أمي في الصريفة " حين كان الطريق ما يزال سالكاً عبر الأزقة والمحلات القديمة وقد وصلتُ إلى هناك قبل اقتحام المدينة بوقت قليل "

"وكيف عرفتم بمصيره ؟ " سأله ماجد، فقال :

" بعد مرور عام تقريباً زارنا أحد أصدقائه وهو نفس الشخص الذي كان ينتظره قرب تمثال الشاعر، فروى لنا كيف أنه التقى به في السجن بعدما اعتقل هو الآخر بينما كان في الطريق إليه، وكيف أنه نجا من الموت بأعجوبة، كذلك أخي كان قاب قوسين من النجاة، إلا أن حزمة من الأوراق اللعينة عثروا عليها تحت ثيابه هي من أوصدت عليه باب الأمل في الاحتفاظ بروحه، فأعدموه مع من لم تطمئن لهم قلوبهم وخمنوا أنهم خونة، فعصبوا أعينهم جميعاً وقذفوا بأجسادهم في خندق كبير قبل أن يُهال عليهم التراب "

لم يبق في المدينة مكان يمكن أن أعثر فيه على نزار سمكة سوى بناية " الليث الأبيض " كما يحلو لسكان المدينة أن يطلقوا على مقر مديرية الأمن العامة، وهذه لم أدن منها أبداً لأن

مجرد التفكير في ذلك يبعث الخوف في أعماقي. أما المخطوطة فلم أكلف نفسي عناء البحث عنها، لأنني كنتُ على يقين لا يشوبه الشك في إنها فُقدت هي الأخرى. وهو ما حزنت لأجله واستأت كثيراً وكان نائل أشدّ مني أسفاً وصل حدّ البكاء والضرب براحتيه على فخذيه لاعناً من تجرأ على حرمة الميت بسرقة كدّه. الأمر الذي أثار استغرابي وجعلني أتساءل : كيف تسنى لنائل أن يتألم لفقدان المخطوطة في حين لم يأت على ذكر مؤلفها ؟ " أنها تدل عليه، هي نفسه، روحه الباقية بعد فنائه ! " قال نائل ولعل في قوله هذا شيئاً من الصحة، لكن : " أين هي الآن ؟ " :

– أنها مسألة غامضة يا صديقي والجواب حالياً يتقوقع تحت سطح الغموض الداكن.. ألا ترى ذلك ؟ وكأنها لعنة.. وباء !...

صمت نائل لبرهة ثم تابع بنبرة ذابلة :

– ما حدث أفزعني حقاً، حتى أنني خشيت من الذهاب معك حين دعوتني للبحث عن نزار، وتوهمتُ لحظة أن عرفتُ بما حدث له أنني الهدف التالي للقدر المظلم أو ربما اللعنة المجهولة التي طالت أصدقاءنا المساكين ! "

في الحقيقة لم يسبق لي أن رأيتُ نائلا مغالياً في السوداوية على هذا النحو، ولعل أكثر ما لفت انتباهي ولاحظته عليه منذ أن أطل من وراء الباب بعينيه المتوجستين خطراً قال أنه على أهبة الهجوم عليه، هو شعره الذي تركه يطول حتى أن خصلات منه تدلت على جبينه وعينيه، ربما جزعاً على نزار أو لغاية مجهولة في نفسه.

كنتُ أزوره بين فترة وأخرى لأطمئن عليه لكنه كان يرفض مقابلتي ويكتفي بدفع قصاصة صغيرة من تحت الباب، إلا أنني لم أفقه من محتوى تلك القصاصات شيئاً سوى أنه ربما صار في طريقه إلى الجنون. لقد كان خائفاً متنبئاً بحدوث أمرٍ سوف لن تحمد عقباه.

قلتُ له : شعرك طويل ! فابتسم قائلاً " نعم " ثم حكّ رأسه وأكمل العبارة " ولو كان لي لحية لعلمت كم أنا حزين ! " لكن وجهه كان أملساً، وكذلك ذراعاه :

" ماذا أصابهما ؟ "

مررت أصبعي على أحدهما فوجدته ناعماً أملساً كجلد فتاة. بيد أنه لم يذكر السبب الذي كان وراء اختفاء الزغب الأشقر عن سطحهما، واستمر في صمته دقائق قبل أن تنفرج أساريره على حين فجأة فأمال رأسه بحركة غريبة :

" لقد حلقته، أنه مزعج – قال بنبرة أنثوية طاغية – أنا أكره الشعر، إنه يقزّزني ! "

لم أكن وقتها متأكداً من أنه ربما جُنّ، إذ مدّ يده إليّ مداعباً بأصابعه الناعمة البيضاء ظاهر كفّي المرتعشة. فيما بدت عيناه في أوج غوايتها، تشنجت أوردتي ومررت بنوبة ارتعاش أوشكتُ خلالها على الانهيار. جمعتُ ما تشتت من رغبتي بمغادرة المكان، وأعدتُ وعيي إلى مكانه المعتاد ثم نهضتُ كمن تلقى لسعة كهربائية في الرأس. أردتُ أن أشوّش على ما حدث أو أدحضه بوهمٍ فشلتُ تماماً في اختلاقه، فعزمتُ على أن أسأله فيما إذا كان قد كتب شيئاً حتى ندخل في حديث آخر ينسيني الأمر برمته، بعد أن حاولت إقناع نفسي بأن ما بدر منه الساعة مجرد دعابة أو مقلب افتعله أخيراً ليغير الجو المفرط في التشاؤم وعدم الطمأنينة حيال المستقبل.

كنا جالسين في غرفته، على سرير عريض مغطى بالديباج، هذا ما ظننته في البداية. وقد فغرتُ فمي عجباً مما رأيت : علب الماكياج وأقلام أحمر الشفاه وقوارير طلاء الأظافر تكدسّت على دولاب أمام المرآة، وكومة من الحقن الفارغة في سلة النفايات القريبة من المرآة. اكسسوارات وملابس داخلية نسائية وحملات صدر ومكحلة وقراصات شعر وحفاظات نسائية. عدتُ لأسأله عن كتاباته الجديدة وعيناي ملتصقتان في تلك السلة، حيث المشهد الغريب لتلك الحقن وعلب الأقراص والعقاقير التي لا أعرف السبب وراء تعاطيها :

" لم تقل لي، هل مازلت تكتب ؟ "

سألته وأنا أنظر إلى الجدران المطلية بلون أقرب إلى الرمادي وهالني ما رأيتُ على إحداها، حيث الصورة المعلقة هناك، وكانت نسخة مطابقة تماماً لصورة نائل، لكنها فتاة ! نظرتُ ورائي إلى وجهه لأطابق الوجه الحقيقي بالوجه الأنثوي في الصورة المعلقة على الجدار : " رباه ! ما أعظم الشبه بينهما ! "

" وأنت .... " أخيراً جاء صوت نائل ذا نبرة تنذر بالبكاء : " هل ما زلت تحلم ؟ "
" أحلم بماذا ؟ "
" في أن تلم شمل الرواية الملعونة ؟ "

اغتظت من قوله ووصفه الرواية بالملعونة. إلا أنني لم أجبه، أنما مكثتُ أنظر إلى صورة الفتاة على الجدار. أردتُ أن أسأله : من هي ؟ لكنه بادرني بالقول معرّفاً :

" أنها شقيقتي "

" لكنها تشبهك.. تشبهك كثيراً ! "

سكبتُ عبارتي بسرعة ودهشة تدلان على مدى تعجبي من هذا الشبه غير الطبيعي. ولما رأى نائل ما ارتسم على وجهي من علامات الريبة والخنوع لظنٍ في غاية الخطورة كما أنه لا يحتمل التصديق عاد إلى صوته الرجولي بضحكة عفوية تلاها قوله بصوت حزين وهادئ : " هي كما ترى، شقيقتي، ولدنا سوية في نفس اللحظة، لكنها ماتت قبل سنتين، وهذه هي غرفتها، من شدة تعلقي بها اتخذتها مسكناً. " والآن صار نائل يبكي : " مسكينة ... ماتت باللوكيميا ! " إنه لا يبكي كما يبكي الرجال، ولم يكن بوسعي وأنا أراه على هذا الحال إلا أن أواسيه وأهدأ من روعه. لكنه انتفض فجأة وكان آخر ما سمعته منه في ذلك اليوم : " لن أكتب شيئاً بعد الآن ! " فتركته بعد أن مللت من تكراره تلك الجملة بطريقة إن دلت فإنما تدل على أنه مختل عقلياً، أو هكذا ظننت في البداية، وأنا أراه على غير الشاكلة التي كان عليها أول مرة.

(7)

بسماعي خبراً يفيد أن نائلا صار على حافة الجنون، تُطوى صفحة أخرى من صفحات تراجيديا جنائزية تناثر أبطالها بين الموت والجنون، ولم يبق سواي أنا القاطن الوحيد في صومعة كانت تضم أيضاً : إسكندر الذي سممه ماركيز بروايته خريف البطريرك، ومسعود الذي ابتلعه الجنون ثم الموت بطريقة سيئة جداً، وماجد قتيل نزوته الخرساء، ونزار جندي الأدب المجهول، وأخيراً نائل الذي لحق برفاقه بعدما صار " يطلي أظافره الطويلة ويلطخ شفتيه بأحمر الشفاه ويظفر شعره الطويل ويستعمل " الشيرة " ويرتدي الكورسيه والجوارب النسائية وحمالة لصدره الذي انتفخ بشكل غريب، فضلاً عن ادعاءه النوم مع جنية في مقهى الترف ! " هذا ما سمعته من أمه حين أتت لزيارتنا في المنزل شاكية، نادبة شباب ولدها الضائع، قبل فترة من موت مسعود في الخربة التي يعيش فيها، إذ وجد مقتولاً هناك، وثمة آثار أسنان نهشت من لحم رقبته وأظافر حادة غُرزت في جلده!

عندما رأيته أول مرة لعنتُ أصل الكلاب التي لم تفِ لصاحبها، فأجهزت عليه بأنيابها ومخالبها القاتلة بعد أن عاش معها وأطعمها من زاده وسقاها من مائه الآسن. أجلت الشرطة جثة القتيل ولم يبق في المكان سوى أسماله وحقيبته الحمراء التي لم أسمح للصبية المتطفلين الذين توافدوا على المكان لمشاهدة الجثة، بنهب محتوياتها فقد رأيت الفضول يملأ أعينهم، مما دفعني لانتشالها من بين ركام القاذورات وقدور الرمل وحملها معي إلى البيت، حيث لبثتُ هناك في غرفتي الصغيرة، ردحاً من الساعات متردداً في فتح الحقيبة وإخراج مخطوطة الفصل الثالث الذي كتبه مسعود قبل أن يغدو مجنوناً.

وقتها، شعرتُ أن تلك المخطوطة باتت من الأشياء عديمة الفائدة، مثلما أن اليد وحدها لا تصفق. فقد كان ضياع المخطوطات الأُخر وغياب نزار المفاجئ والخراب الذي في طريقه إلى نائل، كل هذه الأمور كانت كفيلة بإنهاء الرحلة وركن مخطوطة مسعود جانبا في سلة الأشياء المهملة. لكنه الفضول وحده هو من دفعني أخيراً لفتح الحقيبة وإخراج المخطوطة من ركام الظلمة فيها لأكتشف أن ليس ثمة ما يدعو المرء لأن ينطط عينيه ويشعر بقواه العقلية تقفز من رأسه وتتمرغ في الوحل سوى ذلك والفراغ الأبيض القاحل الذي كان يملأ أوراق المخطوطة. ولولا أنني واضبتُ على الهدوء رغم عاصفة الدوار التي ألمت بي فجأة لتكشفت جلياً هوية المجنون أو ربما الميت التالي في قائمة لم تعد تحمل سوى اسمي.

شعرتُ أولاً بحاجتي الماسة إلى النوم، فأغمضتُ عيني الثملتين، ونمتُ.. نمتُ حتى ظنت أمي أني ميت !

في اليوم التالي ذهبتُ إلى نفس المكان، لعليّ أجد المخطوطة الأصلية هناك. لكنني فوجئت بلفيف من العمال يهدمون الخربة ويهيئون المكان لبناء جديد :

" من هؤلاء ؟ "

سألت جار مسعود الذي وقف على مقربة من داره، فأخبرني أنهم أقربائه، أُتيحت لهم الفرصة بالاستيلاء على البيت. فتعجبت : " أين كانوا عندما مزقته الكلاب اللعينة ؟! "

فسمعني الرجل الذي سألته قبل قليل، وعقب قائلاً :

" لماذا تلعن الكلاب، ونحن في زمن صارت فيه هذه الكائنات أشفق على صاحبها من أقربائه البشر ؟! "

لم يترك لي الرجل جار مسعود الفرصة لكي أنفي ما قاله وأثبت العكس، إذ راح يفصح عن أشياء غريبة وغامضة. بداية قال الرجل متأسفاً : " كنتُ أُشفق على المرحوم، حقيقة، كنتُ

أشفق عليه وطالما أسفت على شبابه، وكنت كلما تيسّر من عشائنا شيء من الخبز أو التمر أقذفه له من وراء السياج، لأنني كنتُ أخشى الاقتراب منه "
" لم نسمع له صوتاً قطّ، ولم يؤذِ أحداً البتة، لكنه لم يرغب يوماً في أن يقترب منه أحد، ولا أعرف السرّ وراء استيحاشه هذا. مع أنه من بعيد يبدو في منتهى الوداعة "
ثم قال هامساً في أذني : " مسعود لم تقتله الكلاب، نعم، أنا لا أستنتج، بل أقول الحقيقة : مسعود قتله البشر ! "
أمعن الرجل نظره في عينيّ بينا هو يدعك حنكه الطويل بإبهامه.

" أنت صديقه؟ " سألني، فأكّدتُ له ذلك قبل أن يروي لي حكاية مسعود كاملة وما حدث قبل أيام من مصرعه المؤلم :

" في ليلة مظلمة كنت على سطح المنزل، وفي نيتي النوم، وإذا بالصوت يجيء من داخل الخرابة. كان صوت مسعود يهدد ويتوعد، بنفس النبرة التي سمعتها في بداية جنونه عندما اقتربت منه كثيراً لأقدم له شيئاً من الطعام، فقذفني بصفيحة مليئة بالرمل، ولم أكن أعرف بعد أن الاقتراب منه بات من الأمور غير المحببة بالنسبة له. صوت اختلطت معه أصوات الكلاب. الكلاب هي الأخرى انتفضت مع صاحبها وراحت تنبح تارة وأخرى تعوي ! نعم تعوي كالذئاب ! وكان الكلب إذا عوى فأنه بعوائه هذا أنما ينذر بالشر ! "
" في البداية ظننت أنها ربما تكون نوبة من نوبات جنونه، كما يحصل عادة مع بقية المجانين، فراح يهلوس مع نفسه أو ربما مع جنيٍّ، أو ما شابه ذلك من أمور يقال أنها تحدث للمجانين وتحفزهم على الصراخ والعراك مع أنفسهم أحياناً. في الواقع لم أرتح لما كان يجري في الخرابة مادام أن الصياح ما زال مستمراً بل أنه ازداد حدّة، كأن شخصاً ما كلما اقترب من مسعود اشتدّت لهجته عنفاً، وكثُر تهديده وازداد وعيده ! قلت في نفسي : لأذهب إلى هناك وأرى بنفسي ما يحصل. إلا أنني ساعة تفكيري بهذا الأمر انتابني شعور قريب من الخوف، بل هو الخوف بعينه. فأزحت الفكرة عن رأسي واضطجعت على فراشي متسائلاً : ترى من الذي راح يستفزّ مسعود المجنون ؟ نعم بالتأكيد كان كذلك، مجنونا للغاية ! "

" أنت صديقه ؟ " قال الرجل مكرراً السؤال " نعم.. نعم أنا أعرفك، كنتُ أراكما سوية تمشيان في الشارع. أليس هو أنت ؟ أنت الذي كنت تزوره دائماً حتى وهو على هذا الحال.. أقصد عندما كان حياً، فاقد العقل "

صمت الرجل للحظات ويبدو من هيئته أنه يحاول استرجاع أشياء أخرى نسيها، أما أنا فقد مكثتُ على لهفتي، تواقاً لكن بحزن لمعرفة المزيد من هذه الحكاية التي راح يرويها جار مسعود بطريقة عشوائية. كانت شفتاه تشبهان شفتي ذكر المعز في ترهلهما وهو يتكلم، وأن صمت فأنه يلمهما ويستغرق في تأمله ممرراً أصابعه على بلعومه كل حين.

ها هو يتنحنح ليكمل حكايته، لكني استوقفته دقيقة لأرجوه ألا يتوقف عن الحديث، فقال :

" حين يئست من استجماع جرأتي المفقودة، لأنني في تلك الأثناء انتابني شعور أنبأني أن مسعوداً بات في حكم الخطر وأن ثمة من يريد أن يؤذيه وهو يا حسرة أمه أعزل، أعزل ومجنون.. تفو..! ماذا يحدث للعالم ؟! حتى المجانين في هذا السجن لا يأتمنون على حياتهم، مع أنهم مجانين، تصور ذلك.... مـ ... جا ....نيييين!! "

" الملعون... الملعون...! "

بصوت خافت مفاجئ قال الرجل، ثم أنّث الكلمة قائلاً بصوت خافت :

" الملعونة... الملعونة..! "

" من هو الملعون، ومن هي الملعونة ؟! " ألححت عليه بأن يوجز في الحديث، فأذعن متأسفاً، وهو يزيح الزبد عن طرفي فمه الكبير بكم ردائه، ثم قال :

" حسناً يا صديقه...

في يوم من الأيام صدقت الحكاية التي تقول أن جنياً فاسداً تلبس في جسد الضحية فأفقده عقله. لأن صوته تغير كثيراً عما كان عليه في السابق. مما يعني أن الجني الفاسد صار يتكلم على لسانه هو، مسعود! هل تصدق ذلك ؟ أنتم المثقفون لا تصدقون مثل هذه الأشياء، لكنه كان وهماً أقرب إلى الحقيقة. وكدت أن أتفق مع الآخرين على أن الرجل مسكون حقاً.. إنسان مسكون فحسب وما هو بمجنون، لو لا أني لمحت من فوق السياج شبح امرأة متلفعة بعباءة سوداء وهي تخرج من الخرابة وتموج كالأفعى في سيرها وصدى خطاها الأنثوية ينقر في أذنيّ ! بعد دقائق من التأمل في الأمر، لم اشكّ في أنها ربما تكون امرأة محسنة أتت لتتصدّق على إنسان معدم ومجنون مثل مسعود. ثم ما لبث اعتقادي هذا أن تلاشى مع جملة الأفكار الغبية التي حشرت نفسها في مخيلتي، لتحل مكانها الشكوك في أن الذي حصل أنما هو من وحي الشيطان.

وفي الليلة التالية سمعت مسعودا يزمجر بصوته المخيف وكان أشد ضراوة من الليلة الماضية. تصورت المشهد متجلياً في صورة مسعود وهو يلوحً بسكينه لمن دنا منه كثيراً

وأوشك أن ينال منه بمفكّ يحمله معه أو ربما بمعول، والكلاب من حوله تنبح وكأنها تستغيث
"

" أكاد أسمع زعيقه ونباح الكلاب الضارية تصل إلى باب الخرابة. نهضت من مكاني مسرعاً لأرى ما رأيته ليلة أمس. لكن المرأة هذه المرة ما برحت تجري مسرعة والكلاب .... كم هي وفية تلك الكلاب! في إثرها تجري ناهشة بأضراسها أطراف العباءة، حتى توارى شبحها في الظلام عند نهاية الشارع، فيما عادت الكلاب مكللة بزهوِ وفائها لصاحبها !

العاهرة !

قلتُ في نفسي ناعتاً تلك المرأة. متسائلاً عما إذا كانت هناك امرأة في هذا العالم تغوي رجلاً مجنوناً ؟! استحلت الأمر وصار من شبه المؤكد أنها لن تعاود الكرة لما لقيته من الكلاب في المرة السابقة. إلا أن ذلك لم يمنع مكوثي في الليلة الثالثة مترقباً مجيئها. طال انتظاري حتى الفجر وهو الوقت الذي تغادر فيه الكلاب مضاجعها في الخرابة لتبدأ جولتها المعتادة في الشوارع الخالية بحثاً عن بقايا طعام في المزابل وبراميل القمامة، لتعثر أخيراً على مجموعة غريبة من الكلاب السائبة، فتدخل معها في عراك دامٍ أما تنصر فيه بطردها من حدودها أو تعود مهزومة والدماء تسيل من جراح تتركها مخالب تلك الكلاب الدخيلة على وجوهها.

كنتُ أنصت إليها وهي تنبح في أطراف الحي، وكان خيط من الفجر يطلي جهة المشرق بنوره الحزين عندما لمحت شبح المرأة يحثّ الخطى باتجاه الخرابة. أنظر الماكرة ماذا تفعل ؟! لم تمض سوى دقيقة نزلت خلالها إلى الأسفل ووقفتُ بالقرب من السياج الفاصل بين داري والخرابة لأسمع صوتاً أنثوياً يئن كما تئنّ القحاب قبل وطئهنّ في الوقت الذي بدأ فيه مسعود يطلق تهديداته المتكررة بصوته الفوضويّ المعتاد ويخاطب المرأة بصيغة المذكر، محذراً إياها من الاقتراب وإلا سوف يغرز سكينه في قلبها، ثم يقطع لحمتها ويرميها للكلاب ! لكن مسعود بهت صوته بشكل مليٍّ حتى تلاشت حدّته، بل انه تحول إلى نشيج يشبه النشيج الذي يصدر من امرأة على وشك الاغتصاب. أما الصوت الآخر فكلما بدا لي أن صاحبه يقترب من مسعود، ازداد غليان نبرته المهيضة للزائدة القبيحة تحت بيجامتي ! هذا أنا الإنسان العاقل على ما أظن، الشابع لشهوته، فكيف الحال مع رجل لم يَرَ في حياته سوى سوءات الكلاب ؟!

توقف الرجل عن حديثه خجلاً مما تردد على لسانه بيد أنه لم يلمح على وجهي عدا آيات التعجب الممزوج بالمرارة، مضاف إليها تلك الرغبة الأكيدة في معرفة المزيد من هذه القصة الغريبة.

وبكلمات بان من تلكؤها بين شفتيه أنه مازال خجلاً مما سلف ذكره، ولم يكن يرغب في أن يخرج من فمه، شرع لإنهاء حديثه، قال :

" بعد ذلك سمعت مسعودا يخرج زفيراً عالياً اختلط مع الصوت الأنثوي، ثمّ ما فتئ أن تحول إلى عواء خفيض ثم إلى هسيس شهويٍّ تحتضنه نبرة هستيرية غريزية جامحة، وإذا بالصوت يترنح بين التلذذ والاحتضار قبل أن يعانق الصوت الآخر فيغوران في آتون سحيق صار فيه الاثنان على شفى ذروة بلغته شهوة كلٍ منهما، وهي التي توقف بعدها كل شيء ! ولم تخرج المرأة من الخرابة إلا بعد مضي نصف ساعة تقريباً، عدا الوقت الذي أمضته في ترويض جنون الرجل، ثم رأيتها تركض مسرعة قبل أن تعود الكلاب إلى مخبئها لتجد صاحبها مجرد الثياب، مرمياً على الأرض دون حراك ! "

" في ضحى ذلك اليوم، رأيت مسعودا كما وصفته لك الآن، وعيناه مأكولتان، كذلك أُذناه وأنفه وشفتاه وعضوه التناسلي، إضافة إلى أصابع يديه وقدميه و أمعائه أيضاً!

والكلاب ... ! لو ترى الكلاب يا أخي ! تناثرت من حوله، بعضها ميتة والأخرى في طريقها إلى الموت، إذ ما زالت تحتفظ بخيط أخير من روحها المزهوقة ! "

القسم الثاني

(8)

بمجرد أن أخبرهم عادل الاسكافي بوجود اسم نزار في قوائم المعدومين، فغرت أفواه رواد مقهى الترف وطفحت الدموع في أعينهم القاحلة إلى أن تساقطت ولذعت بحرارتها الوجنات المخسوفة. ففي هذا المقهى ترعرع برعم موهبته وهنا قرأ أول قصة قصيرةٍ جداً عقب عليها كرومي المتسول بكلمة (أحسنت **!**) مع أنه لم يفهم منها شيئاً.

نزار وقبل أن يقرأ الأقصوصة كان يعرف أن لا أحد في المقهى يفهم فحواها. وحده البحث اللا مجدي عن جمهور، وضعه أمام مجموعة من المسنين لا يعرفون القراءة والكتابة. لذا أخذ على عاتقه قراءة الأقصوصة لهم عكس ما كان سيفعله فيما لو كانوا يجيدون القراءة. وبقدر ما أحبوه، كان ذلك الحبّ يتمثل في أعينهم ونظراتهم الباكية. ومن خلال دموعهم المنسكبة على فقيد مقهى الترف.

ألقى الحاج سبتي حزامه الأسود السميك، وارتدى كوفيته الجديدة هامّاً لاصطحابي إلى المكان الذي وجد فيه عادل الاسكافي اسم نزار. لكني غادرت مسرعاً وفوّتُ عليه فرصة

اللحاق بي، فأضاعني في زحام الأزقة الضيقة والمتفرعة التي اختصرت من خلالها المسافة للوصول إلى ساحة أم البروم حيث أُلصقت قوائم بأسماء الضحايا على القاعدة الكونكريتية لتمثال " العامل " مع صورهم وعناوينهم. بيد أني وقبل وصولي إلى المكان المحدد، سلكت طريقاً آخر إستغرق مني مسافة دقائق قادتني فيها قدماي إلى بناية اخترقتها صواريخ الطائرات الأمريكية، ونهب الناس أثاثها، لتُدشّن بعد خرابها من قبل " العوائل المشردة " الذين كتبوا على جدرانها وأبوابها بلغة إنكّليزية ركيكة عبارة " ! please family"

دخلتُ إلى البناية والخوف في أعماقي يعتمر النفس الضائقة ذرعاً، رغم أن المكان لم يعد سوى نوع من أنواع الخراب الذي لحق بالسلطة بعد الحرب. تجولتُ في القاعات الخربة والغرف المُحرقة والسجون المعتمة، وكان ثمة نزر من المارة زعموا أنهم سمعوا أحد السجناء يستغيث من هوة صغيرة أو ربما من ثقب مجهول في مكان قيل أنه سجن تحت الأرض. تركت الأمر وتابعت تجوالي في المكان الموحش حتى وقعت عيناي على رفوف جثم الغبار على الملفات والسجلات والأوراق المكدسة عليها. أرشيف الموت هذا تساقط بعض من محتوياته على الأرض فيما أُتلف قسم منها أو تناثر هنا و هناك. أحكام مليئة بالأسماء والعناوين. أوامر إعدام واعتقالات وتصفية وتقارير مُلئت بالأحمر. تفرقت في الزوايا وعلى عتبات الغرف المنهوبة.

وبعد بحث مضنٍ بين آلاف الأوراق والملفات والسجلات والتقارير والأضابير القديمة منها والحديثة عثرتُ على اضبارة كُتب عليها " نزار صابر معتوق " سبقته كلمة متهم. في هذه الأثناء ثقب أذنيّ صوت ذو نبرة خشنة فيها قسوة ووعيد، فوجئتُ عند سماعه حينما كنتُ في خلوة مما يجري في الخارج، و كانت الصدمة ما تزال تجوس في داخلي منذ أن التقطت يدي الاضبارة وقرأتُ عليها اسم نزار.

ألتفت ورائي، كان هناك رجل يرتدي دشداشة سوداء وغترة مشجرة، يحدق نحوي بنظرة ظلامية فاحصة. ولا أعرف بالضبط لماذا بدأت قدماي بالارتعاش، ربما لاعتقادي أن ذلك الرجل صار وشك الانقضاض عليّ وفلق رأسي أو ربما قطع أحد أعضائي بمجرفة كان يحملها وفي نيته رفعها ليهوي بها عليّ ؟ لكنه وبلهجة قاسية أسرع من سواها في أن تكون نوعاً من الزجر خاطبني الرجل :

" من أنت ؟! "

كانت عيناه تحفزان المرء على الهرب أو ترغمانه على البحث عن أقرب بابٍ للخروج أو نافذة يلقي بنفسه من خلالها هرباً من بطشه، ولكي أُخفّف من ارتيابه، وارتباك سرعان ما عاد ليأخذ مجراه كما كان متلبساً حركاتي وسكناتي أول ما ظهر لي مدججاً بمجرفته وكأنه أخذ على عاتقه حراسة هذا المكان قلتُ له :

" لي صديق هنا.... "

لكن الرجل لم يفهم شيئاً، الأمر الذي دفعني لإيصال المغزى إليه ببساطة :

" هذا اسمه ، أنظر... اعتقل قبل الحرب، ويبدو من هذا أنهم أعدموه.. أترى !! "

فعرف من كلامي ما عنيته وليس كما خمن هو من أن صديقي ربما كان يسكن في نفس المكان، وقد سألني وكان في عينيه بقايا ريبة يشوبها السوء في ما جئتُ لأجله " وهل أنت هنا من أجل صديقك فقط ؟ " وعندما أكدتُ له ذلك عاد ليسألني :

" ما اسمه ؟ "

" نزار.. نزار صابر معتوق.. هل تعرفه ؟ "

في تلك اللحظة استحلفني الرجل بأرواح أمواتي :
" ألست منهم ؟ "

فهززتُ رأسي نافياً ثم أشرتُ إلى الاضبارة وقلتُ له بثقة لا يعتريها شيء سوى أنها جاءت لتدلّ على صدق كلامي :

" هو منهم.. كما ترى ! "
ومتلذذاً بحقيقة الأمر كشفت عينا الرجل مدى الاطمئنان الذي بدا يتسع في داخله تجاهي أنا الذي يهمني من الموقف أن أنفاسي أخذت قسطها المعتاد من الشهيق والزفير، بعد أن كُتمت خلال دقائق محشوة بالخوف.

تنحى الرجل جانباً لكن عينيه همّتا في النظر إليّ، وكان الفضول يشدهما لمعرفة الدافع الذي كان وراء استمراري في البحث بين الأوراق والأضابير في الرفوف المتربة.

" توجد مخطوطة هنا.. " التفتُ إلى الرجل سائلاً " مع الأضبارة هنا.. ألم ترها ؟ "

لكن الرجل لم يكن في مكانه. برهة وإذا بصوته يجيء من وراء الرفوف :

" هل قلت أن صديقك اسمه نزار ؟ "

"نعم ، نزار صابر.. معتوق ... "

" هل هو السمكة ؟ "

فتعجبتُ من قوله :

" ها أنت تعرفه ! "

"بالطبع... " خرج الرجل من بين الرفوف وكان الغبار يغطي رأسه : " أنا لا أعرفه ! "

بحثتُ في الاضبارة وقرأتُ تحت اسم نزار عبارة (الملقب بسمكة) ثم عدتُ لأتأكد من أن المخطوطة كانت من بين الأشياء المرفقة، إذ دون في أحدى الأوراق " المرفقات : مخطوطة مغرضة "

" هل قرأت هذه ؟ "

"أنا لا أعرف القراءة ! " أجاب الرجل.

فأيقنتُ أن المخطوطة ربما فقدت هي الأخرى أو أنها.. سُرقت، وهو ما أثبته الحارس عندما راح يحدثني عن امرأة مقنعة وموشحة بالسواد من قمة رأسها حتى أخمصي قدميها، قالت أنها أرملة أحدهم، وقد جاءت إلى هنا لتتأكد من أنه أُعدم فعلاً.

أشفق عليها وراح يبحث معها عن اسم الزوج المفقود بين الأوراق وفي السجلات مع أنه لا يعرف القراءة. كانت تقول له : " اسمه نزار.. نزار سمكة.. أعثر عليه أرجوك، نزار... سمكة، تذكر هذا وأنت تبحث... " ولما أخبرها بأنه يجهل القراءة أخرجت من حقيبتها صورة جماعية أشارت فيها إلى رجل طويل نحيل أسمر وفي عينيه حول، يتوسط جماعة من الشبان في مقهى. فحفظ الرجل شكله في الصورة وبدأ يبحث في صور الضحايا الموجودة في الأضابير.

غرقا بالغبار والعرق. كان شيئاً لزجاً كالطين ينضح من رأسه على عينيه فيثير فيهما حرقة قبل أن يسمع المرأة تملأ المكان بصراخها. ركض إليها فوجدها مغشياً عليها. وكانت تضمّ إلى صدرها المكشوف أحدى الأضابير. لقد شقّت ثوبها من الأعلى فتكشّف ثدييها، الأمر الذي دفع الرجل إلى رشقها بالماء البارد، حتى عاد إليها وعيها.

أفاقت المرأة من إغماءتها واستلت من الاضبارة التي عثرت عليها مجموعة من الأوراق ثم غادرت المكان ناعية فقيدها بالبكاء.

وبانتهاء حديث الحارس يبقى السؤال الأشدّ مرارة : " من تلك المرأة التي سرقت مخطوطة نزار ؟ ومن قبله قتلت مسعود ثم سرقت مخطوطته ووضعت مكانها حفنة من الأوراق الفارغة ؟ وإذا كانت تلك المرأة هي التي استحوذت على هذين الفصلين من الرواية، فمن الذي ظفر بالفصلين الأخريين، الفصل الذي كتبه ماجد وأيضاً مخطوطة الفصل الذي كتبته أنا والذي كان من المفترض أن نائلا نسيه في المقهى ثم أضاعه هناك ؟

في صبيحة اليوم التالي ذهبتُ لزيارة نائل في منزله، نائل الذي رست به الأقدار إلى شاطئ ناءٍ تاه بين صخوره. ولأن الجنون فنون كما يشاع فأن نائل هذا أصبح مجنون توأمه الميتة باللوكيميا.

نفس السؤال الذي كنتُ أريد طرحه، طرحته والدته عليّ وشاء الحظّ أن كلينا يجهل المصير الذي صار إليه ولدها. وقد أصابني الفزع في ذلك اليوم عندما علمتُ منها أن الفتاة في الصورة المعلقة على جدار الغرفة لم تكن إلا هو ! نائل، في فترة من فترات ميله إلى عالم الأنوثة ! لقد شرحتُ لها الحالة المرضية والنفسية التي وصل نائلا إلى أقاصيها المعتمة، كما أخبرتها بحكاية الشقيقة الميتة، وتعلقه بها، فكادت المرأة أن تقضي بين يديّ كما حدث مع أم نزار. وقالت أن الشيء نفسه حدث له من قبل، وأن الصورة التي رأيتها هي صورته، التقطها في تلك الفترة العصيبة من ميله المرضي الخطير نحو الأنوثة. وأن حكاية الشقيقة ليست سوى هراء ! "حكاية من نسج خياله " ثم أشارت إلى بطنها قائلة : " أن هذه البطن لم تحمل في عتمتها أنثى قط ! " وكادت أن تفشي أسراراً أخرى عن ولدها إلا أنها وصلت حداً كان

من الصعب عليهاً أن تتنفس بحرية، الأمر الذي جعلها تدعوني للحضور إليها في الغد فتخبرني ما هو أخطر من ذلك شريطة أن أساعدها في العثور على نائل. لكنها لم تفعل ذلك، إذ سرعان ما طلع صبح اليوم الموعود، وتبين لي حين ذهبتُ للقائها، أنها ماتت في ساعاته الأولى.

(9)

ها أنا الآن أهجر مقهى الترف، وأستبدله بمقهىً للإنترنت أدمنتُ على ارتياده بعد الحرب وتعلمتُ فيه الضرب على حروف الكي بورد بعد أن كانت هذه النعمة محجوبة عنا من قبل. وفيما أنا أبحث في أرشيف تابع لصحيفة الكترونية من صحف المعارضة وإذا بي أمام فصل يتيم من رواية نشر بقلم كاتبة أجهلها مع أن اسمها يبدو مألوفاً إلى حدٍّ ما. لم أكن قادراً على تمالك نفسي فكتمتُ الصيحة في فمي حين قرأتُ الأسطر الأولى من ذلك الفصل. قفزتُ من مكاني أمام الحاسوب مقسماً لمن كان حاضراً في المقهى بأنه :

" ماجد.. هو بعينه.. ماجد!! "

لم تكن صورته، إنما عنيتُ روحه التائهة بين السطور. أنا أعرف هذه الكلمات، قرأتها من قبل، أنها لماجد. وبينما كنت في فوضى هذا الاكتشاف المفاجئ سألتُ الشيء الخاوي في رأسي : هل يمكن أن يكون ماجد هو الذي نشر فصله الروائي هذا باسم مستعار قبل أن

يموت، ليضلل به الرقيب وقت ذاك ؟ وإذا كان ذلك صحيحاً ، لماذا ينشر باسم فتاة ؟! لم يمض سوى يوم واحد حتى عرفتُ أن لهذه الكاتبة المجهولة رواية كبيرة منشورة حديثاً في الخارج بعنوان " مائة عام من الفوضى " وهو نفس العنوان الذي اخترناه لروايتنا الجماعية، ولعلّ الشيء الأقسى الذي عرفته وقتها فقض مضجعي وجعلني أهلوس ليلي كله وأتيه نهاري كالمجانين في مقاهي الإنترنت، هو أن فصلي الذي كتبته وأضاعه نائل في المقهى كان ضمن فصول هذه الرواية التي عثرت عليها في أحد المكتبات، ثم اكتشفتُ أنها منتشرة على نطاق واسع وموجودة في أغلب المكتبات وعلى الأرصفة ومعارض الكتب. كذلك فصل ماجد الذي التقطته من أحد المواقع الالكترونية في النهار الفائت. لكن يوجد ثمة فرق في الكلمات ومعانيها وكأن النصّ مترجم من لغة أخرى. أما الفصول الأخرى من الرواية فلا أظن أن أحداً سيقنعني أنها ليست ملكاً لأصدقائي : إسكندر، مسعود، ونزار الذين لو كانوا يعرفون أنهم سينتحرون بكتابة هذه الرواية لما أقدموا على ذلك أبداً، إلا أن الغريب في هذا اللغز هو ما جاء في آخر تلك الرواية، وأعني بذلك الفصل السادس الذي عرفت من أسلوب صاحبه أنه لنائل.

ذاع صيت الرواية في العالم وترجمت إلى أكثر اللغات الحية وتصدرت مبيعات الكتب حتى بيع منها ملايين النسخ حتى الآن، فرأيتُ في ذلك حلمنا المتعفن، نصيبنا الضائع، اجتهادنا من أجل الحياة التي اجتهدت في قتلنا وعزلنا بهذه الطريقة المجانية !....

لكن.. من تكون هذه السارقة المجهولة وأين سمعتُ اسمها أول مرة، وكيف استطاعت الاستيلاء على عصارة أحلامنا ودمائنا التي كتبنا بها معاناتنا الأبدية ؟

" من ؟ "

fa_shamil : من أنت ؟!

Buzz!!!

Anaahed az : ألا تعرفني ؟

fa_shamil : كلا، من تكونين ؟

Anaahed az : أعتقد أنك ستموت من المفاجأة !

fa_shamil : حسن، هل هنالك مفاجأة أكثر من سرقتك للرواية ؟!

Anaahed az : لن تصدق ذلك...

fa_shamil : أصدّق ماذا ؟

Anaahed az : أني جنية !

Buzz!!!

fa_shamil : دعكِ من هذا الهراء، أيتها السارقة !

Anaahed az : ليس هراءً، أنا حقاً كذلك ، جنّية مثقفة سرقت روايتكم الجماعية وهربت بها، هي الآن مشهورة في عالم الجنّ، لقد أعجبت حتى الساحرات والعفاريت والمردة والشياطين، هل تصدق ذلك ؟

fa_shamil : لنفترض أنك جنّية حقاً، كيف وصلت إلى الرواية ؟

Anaahed az : أنت غبي يا فائز.. وهذه مشكلتك، ليس الآن، بل منذ أن رأيتك أول مرة في مقهى الترف، لقد كنت غبياً وساذجاً على الدوام.

fa_shamil : مقهى الترف ؟!

Anaahed az : نعم، هل ما زال قائماً ؟

اسمع يا فائز، أنا أعرفكم جميعاً، وأحفظ وجوهكم، وأعرف تفاصيل حياة كل واحدٍ منكم، إذ عشت بينكم دون أن يكشف أحد أمري، أو يشعر بوجودي، مع أنني قريبة منكم، أسمع أحاديثكم، وأدون أحلامكم، وتروقني أفكاركم الكبيرة والمخيفة في الوقت نفسه، أما الآن فأنا روائية مشهورة في عالمي، وبين أبناء جلدتي، والفضل في ذلك يعود إلى الفكرة الجميلة التي سحرتني....

fa_shamil : أي فكرة ؟

Buzz!!!

Anaahed az : فكرة نزار بكتابة الرواية الجماعية، كانت ملعونة، الهمتني فكرة أخرى هي الكتابة عنكم أنتم الستة، مجموعة من الكتاب يشتركون بكتابة رواية جماعية، لكن وقبل أن تُجمع فصولها ينهار أفراد المجموعة، واحداً تلو آخر، وكأن لعنة ما أصابتهم فجأة ! ربما هي لعنة ماركيز الذي خدعكم بترهاته وتخاريفه المنمنمة. هل تعلم.. أنا الآن أغنى من ماركيزكم الساحر بكثير.

fa_shamil : وهل أنجزتِها ؟

Anaahed az : كلا.. لم أستطع، وكان البديل أنني استحوذت على حلمكم الروائي الكبير، ونشرته باسمي !

fa_shamil : حسن، سأفترض أنكِ جنّية حقيقية، وأرجو أن يروق لك ذلك، حتى أتمكن من سؤالك عمّا إذا كنتِ أنت التي تسببتِ في ما حصل لأفراد المجموعة.

Anaahed az : ليكن.. لكن من أين تريد أن نبدأ، بمسعود ؟

fa_shamil : ها أنتِ تعرفين حتى أسمائنا !

Anaahed az : سبق وأن قلت لك : أنا جنّية، وبإمكاني معرفة كل شيء عنكم...

fa_shamil : حسن.. مسكين مسعود، هل قتلتهِ ؟

Anaahed az : كان أنانياً، أو هكذا رأيته.. ويكرهني.. كنت في نظره أحد أخيلته الداعرة، رغم أني كنت أظهر له كفتاة جميلة وفاتنة على الدوام، فلما سأمت منه ظهرت له على حقيقتي المرعبة، فجُنّ الرجل، فأردت أن أمتعه قليلاً في تلك الليلة، قبل أن أرسله إلى القبر.

fa_shamil : هل دسستِ له السم ؟

Buzz!!!

Anaahed az : نعم.. لكن كيف عرفت ؟

fa_shamil : من الكلاب المسمومة.. لقد أكلت أمعاءه.. ولولا قوة السم، لم تكن تلك الأمعاء فاسدة إلى هذا الحدّ، سيما أن الكلب عنيد بما فيه الكفاية لمقاومة عفن اللحم الفاسد! "

Anaahed az : تحليل دقيق.. في البداية كره أن يأكل وراح يلوح بسكينه.. وعندما ظهرت له كاشفة له مفاتني دسّ رأسه في كومة النفايات وراح يعوي! وعندما ضاجعته أخذ يلهث دالعاً لسانه مثل كلب... ثم أطعمته، فخارت قواه وبدأ يتقيأ "

fa_shamil : " كان قوياً.. أليس كذلك؟ "

Anaahed az : " من: السم أم مسعود ؟ "

fa_shamil : " كلاهما "

Anaahed az : " أما السم، فقد كان يكفي لقتل قطيع من الفيلة.. وأما مسعود فلا أعرف ما الذي دهاك لتنسب إليه القوة وكأنه قلب الأسد! هههههه "

fa_shamil : " ألم يقاوم شيطانك ليلتين.. مع أنه مجنون؟ "

Anaahed az : "إذن.. أنت تعرف؟ ومع ذلك أقول لك أنني لم أره من شيطنتي شيئاً.. لو انك شاهدته في تلك الأثناء.. كان اللعاب ينضح من فمه كالقرد الجائع، تماماً "

fa_shamil : " وسرقتَ المخطوطة؟ "

Anaahed az : " أولاً: أرجو مناداتي بصيغة المؤنث وثانياً: أنا لم أسرق المخطوطة، بل أخذتها فقط "

fa_shamil :" وبقية المخطوطات.. كيف حصلت عليها؟ "

Anaahed az : " مع أن فضولك أزعجني، لكنني سأخبرك بعض الأشياء، فعندما علمتُ بنية نزار في استغلال ماجد وعلاقته مع سفانة شقيقة إسكندر من أجل الحصول على المخطوطة، هرعت لتنفيذ الفكرة قبل أن تتاح الفرصة لكما أنت ونزار. تلبست جسد نائل وذهبتُ إلى ماجد في نفس الليلة وأقنعته بالفكرة، وعندما فشل في الحصول على المخطوطة عن طريق عشيقته، سرقها من غرفة إسكندر، وانتهى الأمر بقتله. كنتُ أختبئ خلف الجدران القريبة حين سمعت صوت الرصاصة، فأعتقت جسد نائل الذي تفاجئ بوجوده في ذلك المكان، فهرب وهو يصرخ كأنثى.. رأيت ماجد متمرغاً بدمائه، فهرعت إليه. وبينما كان نفر من ذوي إسكندر يقتربون من الجثة مسرعين عثرتُ أنا على المخطوطة، كانت تحت قميصه مشدودة إلى بطنه بالحزام، وقد اخترقتها الرصاصة من الوسط قبل أن تمزق أحشائه. "

fa_shamil : " والرسالة ؟ "

Buzz!!!

Anaahed az : " أية رسالة؟ "

fa_shamil : " لقد وجدت في جيب ماجد رسالة بخطّ شقيقة اسكندر "

Anaahed az : " دعك من التحامق..! "

fa_shamil : " كما قلت لك، وكانت مع إسكندر قبل أن يموت.. لقد أراني إياها شاكياً من ماجد واستغلاله لشقيقته ثم وضعها في مخطوطته التي كان يحملها معه "

Anaahed az : " هذا يثبت ما ذكرته لك قبل قليل من إن ماجد تسلل إلى بيت إسكندر بنية السرقة...

fa_shamil : " وبعد.. ماذا فعلتِ؟ "

Anaahed az : " لاشيء... لقد عكفت على نقل فصول من كتاب لتعليم الطبخ بالانكليزية إلى كراسة وضعتها في مكان مخطوطة ماجد التي أخذتها وقمت بترجمتها "

fa_shamil : " وكيف سرقتها؟ "

Anaahed az : أيها الفضوليّ ... لم يكن مالك الفندق الرخيص الذي كان يسكنه ماجد عفيفا إلى " الدرجة التي يقف فيها صامدا أمام ما كشفته له حين ذاك.."

fa_shamil : " هل كنت تعرفين أنها مكتوبة بالانكليزية؟

Anaahed az : " نعم "

fa_shamil : " والنسخة المنشورة في الإنترنت قبل الحرب؟"

Anaahed az : " أوه... تلك.. نعم، لقد طلب ماجد من نائل أن يعطيها لخالٍ له يعمل بحاراً بغية تهريبها إلى الخارج ونشرها في أحدى الصحف باسمٍ مستعار أقترحه هو لكن نائل أبدله باسم فتاة يهودية. الاسم الذي اخرته لي كما ترى، وعندما أخبره بذلك، غضب منه وشتمه وبصق في وجهه... هل تذكر.. ذلك اليوم، خارج المقهى؟ "

fa_shamil :"ومخطوطتي.. لقد سرقتها في وضح النهار"

Anaahed az : " نعم... لكن هل شككت في نائل..؟ "

fa_shamil : " كان من الصعب الشكّ في دموعه.. لقد بدت صادقة "

Anaahed az : " أنت مغفل يا فائز"

fa_shamil : " نعم.. وأنتِ سرقتِني"

Anaahed az : " لقد نسيها فعلاً..فأخذتها، وعندما عاد إلى المقهى لم يجدها.. بعدها جاء ليخبرك أنه فقدها "

fa_shamil : " ومخطوطة نزار أيضاً "

Anaahed az : " أنها أهم فصول الرواية "

fa_shamil : "وكيف عرفتِ أنها في تلك البناية الخربة؟ "

Anaahed az : " لقد بحثتُ عنها في كوخه بعد وفاة أمه. لكنني لم أجدها هناك. عرفت أنه كان يحملها معه عندما قبضوا عليه. وكانت معه فعلاً عندما صار على موعد مع حتفه في مديرية الأمن! أما نائل، فقد كذب عليك حين ادعى أنه لم يكتب شيئاً، أو أنه أنكر ذلك بفعل المسّ الذي أصابه حين تلبست جسده في ليلة مقتل ماجد، وازداد حينما أصاب ظنه بأنه هو الضحية التالية من بين المجموعة، فأخذت مخطوطته في ليلة بلغ فيه جنونه حداً لم يستطع بعده المكوث في البيت. منذ ذلك اليوم وهو يبدو كفتاة، لكنها جميلة. وكان شيئاً من إمارات الجنون بدأت تظهر عليه منذ فترة مبكرة، إلا أن أحداً منكم لم ينتبه إليها. آخر مرة رأيته فيها ليلاً، كان يُغتصب من قبل مراهقين سكارى في مقدمة إحدى الغوارق على ضفة شط العرب من جهة الكورنيش، وهي سفينة الجنرال مود التي كانت متحفاً عائداً للقوة البحرية قبل الحرب "

أوبرا.. الحديث الساخن

لقد استغربت أن يكون هناك شخصاً مجهولاً لا ينتمي إلى المجموعة، وراء كل هذه الأحداث، وبالرغم من أن حكاية الجنية المثقفة هذه لا تروقني، إلا أنني صدقت لفترة وجيزة هذه الحكاية الغريبة. بعد ذلك صار لا يمكنني الجزم بأن أمراً كهذا ممكن الحدوث بينما نحن نعيش في القرن الواحد والعشرين.

ما الذي حدث إذن ؟! تساءلت عن السرّ وراء الغموض الذي اكتنف أحداث هذه الرواية، عندما كنت أشاهد أحد البرامج الشهيرة في التلفاز، والذي استضافت فيه أوبرا : الشخصية الإعلامية الأميركية السوداء والثرية جداً في البرنامج الذي يحمل اسمها روائية عراقية يهودية جميلة تُدعى " أناهيد عزرة " ترتدي ثوباً بنفسجياً شفافاً برزت من تحته حلمتي ثدييها الكبيرتان الناتئتان.

لقد فوجئت بأنها تحمل الاسم نفسه الذي وجدته مكتوباً بالانكليزية في محادثة الجات بين فائز والفتاة التي تدّعي أنها جنية مثقفة سرقت روايتهم الجماعية وهربت إلى عالم الجنّ ّ! وقبل ذلك جاء ذكره على لسان ماجد أثناء توبيخه لنائل في الرواية. الغريب في قصة هذه الروائية – كما يبدو من سيرتها – أنها كانت من قبل خُنثى، أو كما يصنفه البعض بالجنس الثالث، كانت تعيش في البصرة قبل انتقالها إلى نيويورك بمساعدة الجيش الأميركي في العراق، حيث عملت مترجمة في إحدى وحدات المارينز، بعد ادعائها بأنها يهودية متخفية.

حدث ذلك قبل اكتشاف أمرها وترحيلها إلى أميركا، حيث أُجريت لها هناك عملية ناجحة، تم خلالها تحديد جنسها، بعد أن استؤصل عضوها الذكري، وأُبقي على الآخر الأنثوي نزولاً عند رغبتها.

– أوبرا مرحبة : هل أنتِ سعيدة هنا.. في أميركا ؟
– أناهيد عزرة : طبعاً.. بمنتهى السعادة.
– حسن... أوبرا تقلب عينيها وتدلع لسانها في حركة شبه داعرة ضحك منها الحضور :
– وكيف عرف المارينز بأمرك... هل... ؟!
– لا... أوه، اللعنة !!... أناهيد عزرة تحجب وجهها الأبيض المغري بيديها قائلة :
_ هل أنتِ جادة ؟!!
– أوه.. يا إلهي... أوبرا تمطّ شفتيها الكبيرتين المكسوتين بأحمر شفاه بدا متناسقاً مع زينة جفنيها ولون فستانها الأزرق الفاتح، في حين شرعت أناهيد بسرد قصتها على الحضور :
– في حينها صدقوا أني امرأة حقاً، وقد كنت في المرحاض حينما فاجئني أحد الجنود هناك، ولما رأى الجميع ما بين فخذيّ بدئوا يتصارخون : أوه.. فاك ! أووه.. شيت !! ثم عرض عليَّ كبير الأطباء الفكرة، فأصابت، وها أنا الآن أمامك كما ترين.. في أرض الأحلام !

أوبرا تبدو جدية هذه المرة وهي تسألها :
– لقد كتبت رواية مدهشة " مائة عام من الفوضى " هل يعني ذلك أنك تأثرت بماركيز مثلاً، وما السرّ وراء اختلاف النبرات أو تعدد الأصوات في هذه الرواية ؟
– نعم.. رائع، أنتِ قارئة ممتازة... قالت أناهيد عزرة في ذهول :
– لقد اكتشفتِ ذلك، إلا أن الشيء الذي لم تصلي إليه هو أنني لم أتأثر يوماً بماركيز كما تأثر ذلك المعتوه نزار...
– من... أوبرا تقرب أذنيها بصورة مضحكة : من قلتِ لطفاً ؟
– لا.. أبداً... أناهيد ترتبك محمحمة : لم أقل شيئاً.. معذرة !
– فليكن... أوبرا قائلة : ولكن هل يعني ذلك أنك تتحدّين ماركيز ؟
أناهيد مترددة بعض الشيء، لكنها تفاجئ الجالسين بقولها " نعم أتحداه " بصوت جهوري صاخب، حينذاك ضجّ الأستوديو بالتصفيق، سألت أوبرا بعدها في إشارة واضحة إلى صيغة المبالغة التي شابت جواب ضيفتها بخصوص التحدي :
– هل أنت متأكدة ؟

_ طبعاً... قالت الروائية أناهيد عزرة بطرقة بدت خلالها كلاعب كرة قدم يعلن استيائه من الحكم : أنا واثقة من ذلك !

– إذن... صاحت أوبرا بصوت فيه حماسة استرعت انتباه الجمهور : هل يمكنك أن تعطينا نبذة عن روايتك القادمة ؟

– أوه، طبعاً... ردّت أناهيد بحماس : إنها باختصار تتحدث عن مؤلف فاشل يعيش في البصرة، تتسم رواياته بالغباء. لم يكمل دراسته المتوسطة، كان فقيراً ومعدماً في التسعينات عندما ترك مقعد الدراسة، وانشغل بالتدخين والحب الفاشل وكتابة أكبر عدد من قصائد العشق إلى فتيات لم يحببنه يوماً. أنه مغفل، تاه بين قصص الحب والحياة البائسة وثكنات الجيش، في أحد ألوية المشاة الآلي في ميسان. لكنه الآن يعمل في إحدى شركات النفط الحكومية، يدخن كثيراً ويرمي أعقاب سجائره الرخيصة في علبة بيبسي دايت...

– فظيع...! علقت أوبرا وهي تغلق أنفها معبرة عن تقززها بطريقة حاول أحد الجالسين تقليدها، فيما أسهبت الروائية في حديثها عن بطل روايتها الجديدة قائلة :

– نعم.. أنه يفعل ذلك باستمرار، زد على ذلك إهماله والفوضى التي يعيشها : المسمار اللحمي في كعب قدمه اليمنى، البواسير، الغازات، القبض، ضيق في التنفس ليلاً، براز الذباب على لاب توبه، أعقاب وعلب السجائر الفارغة وأقداح الشاي المكومة على الطاولة، إلخ... كل هذه الأشياء ما زال بطلي عاجزاً عن معالجتها. إنه يقرأ قليلاً ويكتب بإسهاب، الصراخ الأصم، لعنة ماركيز، عفن، حارس السرير، قلعة أردشير المدهشة، وجه فنسنت القبيح، عجيب الزنجي، جنيه العراقي، كل تلك العناوين تحملها رواياته، فضلاً عن رواية ضخمة يعدّ لإنجازها وتلك هي رواية العمر حسب تعبيره. إنه الآن يجلس على كرسي معدني بارد، خلف منضدة من الخشب الماليزي الصقيل، ذا لون جوزي تتخلله خطوط فاتحة، بعضها مستقيم والآخر متعرج، في غرفة وضيعة تقع في إحدى محطات كبس الغاز الجاف في شمال الرميلة – البصرة، يكسو حيطانها طلاء تبنيٍّ فاتح، وتلمع على سطحها الأملس المشبع بالبرودة أضواء الفلورسنات المثبتة في السقوف الثانوية ذات اللون الأبيض الملطخ ببصمات أصابع الكهربائيين الذين يغيّرون الفلورسنات العاطبة بأخرى جديدة.

في هذه الغرفة يختبئ بطلي، خلف الأمتعة والفرش والبطانيات العائدة لزملائه في العمل، والمكومة على المنضدة الأخرى الملتصقة بالأولى من جهة اليسار، بينما تحاصره النافذة عن يمينه والحائط أمامه، في حين تتناثر خلفه على الأرض الأحذية والجوارب النتنة والمناشف والملابس الداخلية التي تفوح منها رائحة العرق والآباط الكريهة دائماً.

يمكث هناك طويلاً أثناء مناوبته في العمل يوماً كاملاً، يفكر في قتل أحدهم، شخص ما يعرفه.

– لكن.. أوبرا مقاطعة : هل تعتقدين أنه سيفعلها ؟

– أبداً... اناهيد الروائية تجيب ساخرة : لا يستطيع فعل ذلك، أو حتى مجرد التفكير به، أنه جبان.. بطلي وأنا أعرفه.. لن يفعلها.. انه لا يستطيع إيذاء جرو صغير، الأمر الذي ينكره دائماً، معتقداً على الدوام أن بمقدوره ارتكاب جريمة قتل. لكنه بالرغم من ذلك ما زال يفكر بهدوء.. يحاول الاحتيال عليّ.. لقد تركته هناك بين الدواليب الحديدية والأرفف والأحذية المنتشرة في كل مكان، يخطط لجريمته النكراء.

– وهل سيقرر ؟ أوبرا سائلة ضيفتها أناهيد التي بدت واثقة تماماً وهي تقول :

– ربما يفعل ذلك غداً مساءاً، على أن ينفذ خطته بعد غد.. لكنه وكما قلت لكِ لن يفعلها أبداً.

أوبرا تصيح بصوت عال :

– لكن.. لماذا ؟!

فتجيبها الروائية بحزم :

– لأنه ببساطة ليس قاتلاً !

في هذه الأثناء أطلقت أوبرا ابتسامة عريضة بانت خلالها أسنانها البيض، وراحت تحكّ أنفها الكبير مودعة ضيفتها الروائية، وداعية في الوقت نفسه المشاهدين على اقتناء وقراءة روايتها المهمة والموسومة مائة عام من الفوضى.

في اليوم التالي، تصدرت هذه الرواية مبيعات الكتب في أميركا وبريطانيا وأجزاء من أوربا، وتلقت على إثرها المؤلفة عروض كبيرة من دور نشر فرنسية وإيطالية وإسبانية. أما الذي حدث في اليوم التالي وفوجئت به حتماً، هو العثور على جثة الروائية العراقية أناهيد عزرة في شقتها الواقعة في شارع أديسون. كانت عارية تماماً، يستقر رأسها على الحافة العريضة لبانيو سباحة مليء بالحليب الذي تحول لونه الأبيض إلى الأحمر/ الفاتح/. فيما لا زالت يداها متدليتان خارج الحوض السيراميكي الورديّ البراق، قريباً من نهديها الكبيران تطفو حبات من الزيتون وأخرى ما زالت في قعر الحوض عند مؤخرتها وقدميها، كذلك تطفو أوراق الياسمين الملطخة بالدماء التي نزفت بغزارة من صدرها المهشم بسكين قديمة وصدئة تركها القاتل على المغسلة، وقد نُقش عليها اسم " عباس السبع " !